هارون الرشيد

أعلام الخلفاء
العباسيين

الخليفة العباسي هارون الرشيد

أكثر خلفاء الدولة العباسية جهادًا وغزوًا واهتمامًا بالعلم والعلماء، كثير البكاء على نفسه، تسيل دموعه كالسيل إذا وعظ، ولم يذكر له النبي صلى الله عليه وسلم إلا قال: صلى الله على سيدي.

هو أبو جعفر هارون بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي، كان مولده بالري حين كان أبوه أميرًا عليها وعلى خراسان في سنة ثمان وأربعين ومائة وأمه أم ولد تسمى الخيزران وهى أم الهادي.

نشأ هارون تحيطه رعاية والده الذي دربه منذ حياته المبكرة على الحياة العسكرية، فجعله أميرًا لحملة عسكرية كانت تسمى بالصوائف حيث كانت تخرج للجهاد في الصيف، والشواتي نسبة إلى الشتاء لتهديد العدو البيزنطي وتخويفًا له، وولاه المغرب كله، ثم عينه والده وليًّا للعهد بعد أخيه الهادي.

ولي الخلافة بعهد معقود له بعد الهادي من أبيهما المهدي في ليلة السبت السادس عشر من ربيع الأول سنة سبعين ومائة بعد الهادي، قال الصولي: هذه الليلة ولد له فيها عبد الله المأمون ولم يكن في سائر الزمان ليلة مات فيها خليفة وقام خليفة وولد خليفة إلا هذه الليلة وكان يكنى أبا موسى فتكنى بأبي جعفر.

تولى الرشيد خلافة المسلمين سنة 170هـ، وأصبحت بغداد في عصره من أعظم مدن الدنيا، فريدة في حضارتها وعمارتها، وشمل بعدله القوي والضعيف والعاجز والمريض وذا الحاجة، وازدهرت فترة ولايته بوجود الكثير من أئمة العلم العظام كالإمام مالك بن أنس، والليث بن سعد، والكسائي ومحمد بن الحسن من كبار أصحاب أبي حنيفة.

وكان يضرب به المثل في التواضع، يحكى أن أبي معاوية الضرير وهو من العلماء المحدثين قال: أكلت مع الرشيد ثم صبَّ على يدي الماء رجل لا أعرفه، فقال الرشيد: تدري من صب عليك؟ قلت: لا. قال: أنا، إجلالاً للعلم.

وجاوزت خشيته من الله الحدود، فكان جسده يرتعد، ويسمع صوت بكائه إذا وعظه أحد من الناس، يحكى أنه جالس (أبا العتاهية) الشاعر، وكلف أحد جنوده بمراقبته، وإخباره بما يقول، فرآه الجاسوس يومًا وقد كتب على الحائط:

إلى ديان يوم الدين نمضي ⁝ وعند الله يجتمع الخصوم

فأخبر الجاسوس الرشيد بذلك، فبكي وأحضر أبا العتاهية، وطلب منه أن يسامحه، وأعطاه ألف دينار.

وقال الأصمعي: وضع الرشيد طعامًا، وزخرف مجالسه وزينها، وأحضر أبا العتاهية وقال له: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا، فقال أبو العتاهية:

عش ما بدا لك سالمًا ⁝ في ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد: أحسنت ثم ماذا؟ فقال:

يسعى إليك بما اشتهيت ⁝ لدى الرواح وفي البكور

فقال: حسن؟ ثم ماذا؟ فقال أبو العتاهية مندفعًا:

فإذا النفوس تقعقعت ⁝ في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنًا ⁝ ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد، فزجر أحد الحاضرين أبا العتاهية لأن المقام مقام فرح وسرور، فقال الرشيد: دعه، فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه.

وكان كثير الغزو والحج يغزو سنة ويحج سنة، فإذا حج حجَّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج قام بالإنفاق على ثلاثمائة رجل ليؤدوا فريضة الحج، ورغم هذه الرقة والشفافية والزهد، كان شجاعًا لا يخاف في الله لومة لائم، غيورًا على دينه، صلبًا كالحديد في وجه أعداء الله، وظل طيلة حياته يحب الجهاد والفتوحات الإسلامية، فغزا الروم، وفتح هرقلة، وبلغ جيشه أنقرة، وسار الرشيد نحو خراسان ليغزوها، فوصل

(طوس) فمرض بها ومات في ثالث جمادى الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة (193هـ).

وكان الرشيد يحب العلماء ويعظم حرمات الدين ويبغض الجدال والكلام، وقال القاضي الفاضل في بعض رسائله ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله.

ولما بلغه موت عبد الله بن المبارك حزن عليه وجلس للعزاء فعزاه الأكابر.

قال أبو معاوية الضرير ما ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم بين يدي الرشيد إلا قال صلى الله على سيدي ورويت له حديثه: **وددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيى ثم أقتل** - فبكى حتى انتحب .

وعن خرزاذ العابد قال: حدث أبو معاوية الرشيد بحديث: **احتج آدم وموسى...** - فقال رجل شريف: فأين لقيه؟ فغضب الرشيد وقال: النطع والسيف زنديق يطعن في الحديث فما زال أبو معاوية يسكنه ويقول: بادرة منه يا أمير المؤمنين حتى سكن.

وكان العلماء يبادلونه التقدير، روي عن الفضيل بن عياض أنه قال: ما من نفس تموت أشد علي موتًا من أمير المؤمنين هارون ولوددت أن الله زاد من عمري في عمره، قال: فكبر ذلك علينا فلما مات هارون وظهرت الفتن وكان من المأمون ما حمل الناس على القول بخلق القرآن قلنا: الشيخ كان أعلم بما تكلم.

ومن مواقفه التي لا تنسى في سنة سبع وثمانين ومائة حينما جاءه كتاب من ملك الروم نقفور بنقض الهدنة التي كانت عقدت بين المسلمين وبين الملكة ريني ملكة الروم وصورة الكتاب [من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيذق فحملت إليك من أموالها أحمالا وذلك لضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بيننا وبينك].

فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبًا حتى ما تمكن أحد أن ينظر إلى وجهه فضلاً أن يخاطبه وتفرق جلساؤه من الخوف واستعجم الرأي على الوزير فدعا الرشيد بدواة وكتب على ظهر كتابه بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا بن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه ثم سار ليومه فلم يزل حتى نزل مدينة هرقل وكانت غزوة مشهورة وفتحًا مبينًا فطلب نقفور الموادعة والتزم بخراج يحمله كل سنة.

مات الرشيد في الغزو بطوس من خراسان ودفن بها في ثالث من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة وله خمس وأربعون سنة وصلى عليه ابنه الصالح قال الصولى: خلف الرشيد مائة ألف ألف دينار ومن الأثاث والجواهر والورق والدواب ما قيمته ألف ألف دينار وخمسة وعشرون ألف دينار.

وقيل: إن الرشيد رأى منامًا أنه يموت بطوس فبكى وقال: احفروا لي قبرًا فحفر له ثم حمل في قبة على جمل وسيق به حتى نظر إلى القبر فقال: يا ابن آدم تصير إلى هذا وأمر قومًا فنزلوا فختموا فيه ختمًا وهو في محفة على شفير القبر ولما مات بويع لوالده الأمين في العسكر وهو حينئذ ببغداد فأتاه الخبر فصلى الناس الجمعة وخطب ونعى الرشيد إلى الناس وبايعوه.

ولأبى الشيص يرثى الرشيد:

غربت في الشرق شمس : فلها عيني تدمع
ما رأينا قط شمسًا :: غربت من حيث تطلع

وقال أبو النواس جامع بين العزاء والهناء:

جرت جوار بالسعد والنحس : فنحن في مأتم وفي عرس
القلب يبكى والعين ضاحكة :: فنحن في وحشة وفى أنس
يضحكنا القائم الأمين ويبكينا : وفاة الإمام بالأمس

بدران بدر أضحى ببغداد في الخلد وبدر بطوس في الرمس[1]

مواقف من حياته:

هارون الرشيد يأمر بقتل فتى علوي فينجيه الله تعالى:

أخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: أخبرني عيسى بن عبد العزيز الظاهري، قال: أخبرني أبو عبد الله قال:

أمر الرشيد بعض خدمه، فقال: إذا كان الليلة، فصر إلى الحجرة الفلانية، فافتحها، وخذ من رأيت فيها، فائت به موضع كذا وكذا، من الصحراء الفلانية، فإن ثم قليباً محفوراً، فارم به، وطمه بالتراب، وليكن معك فلان الحاجب.

قال: فجاء الغلام إلى باب الحجرة، ففتحه، فإذا فيها غلام كالشمس الطالعة، فجذبناه جذباً عنيفاً.

فقال له: اتق الله، فإني ابن رسول الله، فالله، الله، أن تلقى الله بدمي، فلم يلتفت إلى قوله، وأخرجه إلى الموضع.

فلما أشرف الفتى على التلف، وشاهد القليب، قال له: يا هذا، إنك على رد ما لم تفعل، أقدر منك على رد ما فعلت، فدعني أصلي ركعتين، وامض لما أمرت به.

فقال له: شأنك وما تريد.

فقام الفتى، صلى ركعتين، قال فيهما: يا خفي اللطف، أغثني في وقتي هذا، والطف بي بلطفك الخفي.

فلا والله ما استتم دعاءه، حتى هبت ريح وغبرة، حتى لم ير بعضهم بعضاً، فوقعوا لوجوههم، واشتغلوا بأنفسهم عن الفتى، ثم سكنت الريح والغبرة، وطلبنا الفتى، فلم يوجد، وقيوده مرمية.

---

(1) تاريخ خليفة 437، 461، المعارف: 381، 383، المعرفة والتاريخ 1 / 161، 182، الأخبار الطوال: 386، 387، تاريخ اليعقوبي 3 / 139، الطبري 8 / 230، تاريخ بغداد 14 / 5، الكامل لابن الأثير 6 / 106، المختصر في أخبار البشر 1 / 305، العبر 1 / 312، دول الإسلام 1 / 113، 121، تاريخ الخلفاء: 283، شذرات الذهب 1 / 334، الذهبي المتوفى، سير أعلام النبلاء، 286/9.

فقال الحاجب لمن معه: هلكنا والله، سيقع لأمير المؤمنين أنا أطلقناه، فماذا نقول له؟ إن كذبناه لم نأمن أن يبلغه خبر الفتى فيقتلنا، ولئن صدقناه، ليعجلن لنا المكروه.

فقال له الآخر: يقول الحكيم: إن كان الكذب ينجي، فالصدق أرجى وأنجى.

فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما فعلتم فيما تقدمت به إليكم؟ فقال له الحاجب: يا أمير المؤمنين، الصدق أولى ما اتبع في جميع الأمور، ومثلي لا يجترئ أن يكذب بحضرتك، وإنه كان من الخبر كيت وكيت.

فقال الرشيد: لقد تداركه اللطف الخفي، والله، لأجعلنها في مقدمات دعائي، امض لشأنك، واكتم ما جرى[1].

الرشيد يمضي ما تعهد به وزيره جعفر البرمكي في مجلس أنس:

عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: لم أر قط مثل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، كانت له فتوة، وظرف، وأدب، وحسن غناء، وضرب بالطبل، وكان يأخذ بأجزل حظ، من كل فن.

إنه نائم، فرجع، وقال: سر بنا إلى المنزل، حتى نخلو جميعاً بقية يومنا، فأغنيك، وتغنيني، ونأخذ في شأننا، من وقتنا هذا.

فقلت: نعم.

فسرنا إلى مجلسه، فطرحنا ثيابنا، ودعا بالطعام، فأكلنا، وأمر بإخراج الجواري، وقال: ليبرزن، فليس عندنا من نحتشمه.

فلما رفع الطعام، وجيء بالشراب، دعا بقميص حرير فلبسه، ودعا لي بمثله، ودعا بخلوق، فتخلق، وخلفني، وجعل يغنيني، وأغنيه.

وكان قد دعا بالحاجب، فتقدم إليه أن لا يأذن لأحد من الناس كلهم، وإن جاء رسول أمير المؤمنين، فأعلمه أني مشغول، واحتاط في ذلك، وتقدم فيه إلى جميع الحجاب والخدم.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، 44/1.

ثم قال: إن جاء عبد الملك، فائذنوا له، يعني رجلاً كان يأنس به، ويمازحه، ويحضره خلواته، ثم أخذنا في شأننا.

فبينما نحن على حالة سارة، إذ رفع الستر، فإذا عبد الملك بن صالح الهاشمي قد أقبل، وغلط الحاجب، فلم يفرق بينه وبين عبد الملك الذي يأنس به جعفر.

وكان عبد الملك هذا من جلالة القدر والتقشف، على حالة معروفة، حتى إنه كان يمتنع من منادمة الخليفة، على اجتهاد من الخليفة أن يشرب معه قدحاً واحداً، فلم يفعل، ترفعاً.

فلما رأيناه مقبلاً، أقبل كل واحد منا ينظر إلى صاحبه، وكاد جعفر أن تنشق مرارته غيظاً.

وفهم الرجل حالنا، فأقبل نحونا، حتى صار إلى الرواق الذي نحن فيه، فنزع قلنسوته، فرمى بها مع طيلسانه جانباً، ثم قال: أطعمونا شيئاً.

فدعا له جعفر بطعام، وهو منتفخ غيظاً وغضباً، فأكل، ثم دعا برطل فشربه.

ثم أقبل إلى المجلس الذي كنا فيه، فأخذ بعضادتي الباب، ثم قال: أشركونا فيما أنتم فيه.

فقال له جعفر: ادخل، فدخل فدعا له بقميص حرير وخلوق، فلبس، وتخلق، ثم دعا برطل، ورطل حتى شرب ثلاثة أرطال، ثم اندفع يغنينا، فكان - والله - أحسننا غناءً.

فلما طابت نفس جعفر، وسري عنه ما كان به، التفت إليه، وقال: ارفع حوائجك.

فقال: ليس هذا موضع حوائج.

فقال: أقسم عليك، لتفعلن.

ولم يزل يلح عليه حتى قال له: أمير المؤمنين واجد علي كما قد علمت، فأحب أن تترضاه.

قال: فإن أمير المؤمنين قد رضي عنك، فهات حوائجك، كما أقول لك.

قال: علي دين فادح.

قال: كم مبلغه؟ قال: أربعة آلاف ألف درهم.

قال: هذه أربعة آلاف ألف درهم، فإن أحببت قبضها، قبضتها الساعة، فإنه لا يمنعني من أعطائك إياها، إلا أن قدرك يجل عندي أن يصلك مثلي، ولكني ضامن لها، حتى تحمل لك في غد، من مال أمير المؤمنين، فسل أيضاً.

قال: تكلم أمير المؤمنين حتى ينوه باسم ابني.

قال: ولاه أمير المؤمنين مصر، وزجه ابنته الغالية، ومهرها عنه ألفي ألف درهم.

قال إسحاق: فقلت في نفسي، قد سكر الرجل - يعني جعفر.

فلما أصبحنا، حضرت دار الرشيد، فإذا بجعفر بين يديه، ووجدت في الدار جلبة، فإذا بأبي يوسف القاضي ونظرائه، وقد دعي بهم، ثم دعي بعبد الملك وابنه، فدخلا على الرشيد.

فقال الرشيد لعبد الملك: إن أمير المؤمنين كان واجداً عليك، وقد رضي عنك، وأمر لك بأربعة آلاف ألف درهم، فخذها من جعفر الساعة.

ثم دعا بابنه، وقال: اشهدوا علي أنني قد زوجته ابنتي الغالية، ومهرتها عنه ألفي ألف درهم، ووليته مصر.

فلما خرج جعفر سألته عن الخبر، فقال: بكرت إلى دار الرشيد، فحكيت له جميع ما جرى حرفاً حرفاً، ووصفت له دخول عبد الملك وما صنع، فعجب منه، وسر به.

فقلت له: وقد ضمنت له عن أمير المؤمنين ضماناً.

فقال: ما هو؟ فأعلمته.

فقال: نفي له بضمانك، وأمر بإحضاره، فكان ما رأيت؟[1].

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص64.

الرشيد يرضى عن فرج الرخجي ويعيده إلى عمالة الأهواز:

ذكر ابن عبدوس في كتابه الوزراء، قال: كان الرشيد قد قلد فرجاً الرخجي الأهواز، فاتصلت السعايات به عنده، وكثرت الشكايات منه، وتظلم الرعية، وادعي عليه أنه اقتطع مالاً عظيماً، فصرفه بمحمد بن أبان الأنباري وقبض عليه.

وحدث للرشيد سفر، فأشخصه معه، فلما كان في بعض الطريق دعا به، فقال مطر بن سعيد، كاتب فرج: فلما أمر بإحضاره، حضر وأنا معه، ولست أشك في الإيقاع به، وإزالة نعمته، فوقفت بباب مضرب الرشيد، ودخل فرج، ونحن نتوقعه أن يخرج منكوباً، إذ خرج وعليه الخلع، فتضاعفت النعمة عندي، وسرت معه إلى منزله.

فلما خلا سألته عن خبره، فقال: دخلت عليه ووجهه إلى الحائط، وظهره إلي، فلما أحس بي، شتمني أقبح شتم، وتوعدني أشد توعد.

ثم قال: يا بن الفاعلة، رفعتك فوق قدرك، وائتمنتك، فخنتني، وسرقت مالي، وفعلت، وصنعت، والله، لأفعلن بك، ولأصنعن.

فلما سكت، قلت: القول ما قاله أمير المؤمنين في إنعامه، وأكثر منه، وحلفت له بأيمان البيعة وغيرها، أني ناصحت وما سرقت، ووفرت وما خنت، واستقصيت حقوقه من غير ظلم، ولكني كنت إذا حضر وقت الغلات، جمعت التجار وناديت عليها، فإذا تقررت العطايا أنفذت البيع، وجعلت لي مع التجار حصة، فربما ربحت، وربما وضعت، إلى أن اجتمع لي من ذلك وغيره، في عدة سنين، عشرون ألف ألف درهم، فاتخذت أزجاً كبيراً، وأودعته المال، وسددته عليه فخذها، وحول وجهك إلى عبدك، وكررت عليه الأيمان، بأيمان البيعة على صدقي.

فقال لي: بارك الله لك في مالك، ارجع إلى عملك[1].

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 65.

الرشيد يرضى عن العتابي الشاعر:

قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد: غضب الرشيد على العتابي، وحجبه، فدخل سرًّا مع المتظلمين، بغير إذن، فمثل بين يدي الرشيد، فقال له: يا أمير المؤمنين، قد أدبني الناس لك، ولنفسي فيك، وردني ابتلاؤهم إلى شكرك، وما مع ذكرك قناعة بأحد غيرك، ولعمري لنعم الصائن كنت لنفسي، لو أعانني الصبر عليك، ولذلك أقول:

أخضني المقام الغمر إن كان غرّني ... سنا خلّب أو زلّت القدمان
أتتركني جدب المعيشة مقتراً ... وكفّاك من ماء النّدى يكفان
وتجعلني سهم المطامع بعدما ... بللت يميني بالنّدى ولساني

قال: فرضي عنه، وخلع عليه، وأمر له بجائزة سنية، فما رأيت العتابي أنشط منه في ذلك اليوم، ولا أفرح، ولا أبسط لساناً منه يومئذ.

قال أبو الفرج الأصبهاني: في البيتين الأولين غناء لمخارق، ثاني ثقيل بالوسطى، وقيل: إن فيه للواثق ثاني ثقيل آخر[1].

جعفر بن محمد بن الأشعث يهدئ من غضب الرشيد:

غضب الرشيد على جعفر بن محمد بن الأشعث، غضباً شديداً، من كلام جرى بينهما، فخاف جعفر أن يستفزه الغضب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما تغضب لله عز وجل، فلا تغضب له بما لا يغضب به لنفسه، فانعطف له الرشيد[2].

الرشيد يرضى عن نصر بن مالك:

لما عزل الرشيد نصر بن مالك، بسعي البرامكة، أمره أن يلزم بيته، ولا يخرج منه، فكتب إلى الرشيد: قد قبضني سوء رأي أمير المؤمنين فيَّ، عن الاعتذار بحجة، أو نشر دلالة تنبئ بخلاف ما قرفت به عنده، فما أهتدي إلى وجه طلب الاعتذار، وما يجرأني على الإبانة عما لا أعلمه إلا

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 67.
(2) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 69.

حسن رأيه أعزه الله، واطلاعه على قلقي بضميره، فإني عبد نعمته، وغذي إحسانه، إن أسبغا علي، وفي شكري لهما، وإن أزيلا عني، اعتضت منهما الرجوع إلى الحرمة، ولزوم فائدة يتطول بها علي، من تطول على أمير المؤمنين برد ميراثه من الخلافة عليه.

فوقع الرشيد على ظهر رقعته: نصر بن مالك، أولى من ردت عليه النعمة، إذ كان معترفاً بسمتها، وبالغاً بالشكر حق قيمتها، فما شكرني أحد من أوليائي كشكره، فليهنه ما أولياه من رأينا، ومنحناه من برنا. وأظهر الرضا عنه، وولاه ولاية أخرجه إليها[1].

حبسه المهدي وأطلقه الرشيد:

قال بشر بن موسى الأسدي: حبس المهدي يعقوب بن داود وزيره، فطال حبسه، فرأى في منامه، كأن قائلاً يقول له: قل: يا رفيق، يا شفيق، أنت ربي الحقيق، ادفع عني الضيق، إنك على كل شيء قدير.

قال: فقلتها، فما شعرت إلا بالأبواب تفتح، ثم أدخلت على الرشيد، فقال: أتاني الذي أتاك، فاحمد الله عز وجل.

وخلِّ سبيلي.

وقد روي هذا الخبر بطريقة أخرى عن عبد الله بن يعقوب بن داود، قال: قال لي أبي: حبسني المهدي في بئر بنيت عليها قبة، فكنت فيها خمس عشرة سنة، حتى مضى صدر من خلافة الرشيد، وكان يدلى لي في كل يوم رغيف وكوز ماء، وأؤذن بأوقات الصلاة، فلما كان رأس ثلاث عشرة سنة، أتاني آت في منامي، فقال:

حنا على يوسفٍ ربٌّ فأخرجه ⁝ من قعر جبّ وبئر حولها غمم

فحمدت الله تعالى، وقلت: أتاني الفرج، ثم مكثت حولاً لا أرى شيئاً، فلما كان رأس الحول، أتاني ذلك الآتي، فقال:

عسى فرجٌ يأتي به الله إنّه ⁝ له كلّ يوم في خليقته أمر

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 70.

ثم أقمت حولا لا أرى شيئاً، ثم أتاني ذلك الآتي، بعد الحول، فقال:

عسى الكرب الّذي أمسيت فيه : يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفكّ عانٍ :: ويأتي أهله النائي الغريب

فلما أصبحت، نوديت، فظننت أني أؤذن بالصلاة، فدلي إلي حبل وقيل لي: شد به وسطك، ففعلت، فأخرجوني، فلما تأملت الضوء، غشي بصري، فأخذ من شعري، وألبست ثياباً، وأدخلت إلى مجلس، فقيل لي: سلم على أمير المؤمنين.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين المهدي، ورحمة الله وبركاته.

فقال: لست به.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الهادي، ورحمة الله وبركاته.

فقال: لست به.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد، ورحمة الله وبركاته.

فقال: وعليك السلام، يا يعقوب بن داود، والله ما شفع أحد فيك إلي، غير أني حملت الليلة صبية لي على عنقي، فذكرت حملك إياي على عنقك، فرثيت لك من المحل الذي كنت فيه، فأخرجتك، ثم أكرمني، وقرب مجلسي.

ثم إن يحيى بن خالد تنكر لي، كأنه خاف أن أغلب على الرشيد دونه، فخفته، فاستأذنت في الحج، فأذن لي.

فلم يزل مقيماً بمكة، حتى مات بها.

حدثني أبي في المذاكرة بإسناد له، وكان في الخبر: أن المهدي حبسه في بئر، ووكل أمره إلى خادم له، واستحلفه ألاَّ يخبر بخبره أحداً من الخلق كلهم، فكان الخادم الموكل به، ينزل إليه في كل يوم رغيفين، ودورق ماء، منه شربه وطهوره، وفي البئر موضع يتطهر فيه، فكان كذلك خمس عشرة سنة.

فلما كان بعد خمس عشرة سنة سأل عنه الرشيد فقيل له: سلم إلى فلان الخادم، وذكر أنه مات.

فأحضر الخادم، وسأله عنه، فقال: إنه مات.

فاستثبته، فرأى كلاماً مختلفاً، فجد به، فقال: لا أعرف غير موته، فهدده، فأقام على الإنكار، إلى أن استحضر الرشيد المقارع.

فقال: أنا أصدق، استحلفني أمير المؤمنين المهدي، ألا أخبر بخبره أحداً من الخلق أبداً.

فأكرهه الرشيد، فدل على البئر التي هو فيها، ثم تتفق الروايات.

قال: فلما وقف بين يدي الرشيد، وسلم، قال له الرشيد - مخفياً كلامه - من أمير المؤمنين؟ فقال: المهدي.

قال: قد مضى لحال سبيله، فسلم على أمير المؤمنين، فسلم.

فقال: قولوا له من أمير المؤمنين؟ قال: الهادي.

قال: قد مضى لحال سبيله، فسلم على أمير المؤمنين، فسلم.

فقال: قولوا له، من أمير المؤمنين؟ فقال: هارون، ثم تتفق الروايتان.

وروي لي هذا الخبر على وجه آخر، وهو أضعف عندي، غير أني أجيء به كما بلغني، فحدثت بروايات مختلفة، قالوا: حدث عبد الله بن أيوب، قال: رأيت يعقوب بن داود في الطواف، فقلت له: كيف كان سبب خروجك؟ قال: كنت في المطبق حتى خفت على بصري، فأتاني آت في منامي، فقال لي: يا يعقوب كيف ترى مكانك؟ فقلت: وما سؤالك؟ أما ترى ما أنا فيه، أليس يكفيك هذا؟ فقال: أسبغ الوضوء، وصل أربع ركعات، وقل: يا حسن، يا مجمل، يا منعم، يا مفضل، يا ذا الفضل والنعم، يا عظيم، يا ذا العرش العظيم، اجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً.

فانتبهت، وقلت في نفسي: هذا في النوم، ورجعت إلى نفسي، فحفظت الدعاء، وقمت، فتوضأت، وصليت، ودعوت به، فلما أسفر الصبح، جاؤوني، فأخرجوني.

فقلت: ما دعاني إلا ليقتلني.

فلما رآني، أومأ إليهم، اذهبوا به إلى الحمام، فنظفوه، ائتوني به، فطابت نفسي، وسجدت شكراً لله تعالى، فأطلت السجود.

فقالوا لي: قم.

فقال لهم الرشيد: دعوه ما دام ساجداً، ثم رفعت رأسي، ثم مضى بي إلى الحمام.

فلما خرجت خلع علي، ثم ضرب بيده على ظهري، وقال لي: يا يعقوب، لا يمنن عليك أحد بمنة، فما زلت منذ الليلة قلقاً بأمرك[1].

الرشيد يولي أخاه إبراهيم بن المهدي دمشق:

بلغني عن إبراهيم بن المهدي، قال: كنت في جفوة شديدة من أخي الرشيد، أثرت في جاهي، ونقصت حالي، وأفضيت معها إلى الإضافة بتأخير أرزاقي، وظهور إطراحه إياي، فاختلت لذلك أحوالي، وركبني دين فادح، فبلغ بي القلق والفكر فيه ليلة من الليالي، مبلغاً شديداً، ونمت فرأيت في النوم كأني واقف بين يدي أبي المهدي، وهو يسألني عن حالي، وأنا أشكو إليه ما نكبني به الرشيد، وأنهيت إليه حالي، وأنا أقول: ادع الله عليه يا أمير المؤمنين.

فكأنه يقول: اللهم أصلح ابني هارون، يكررها ثلاثاً.

فكأني أقول: يا أمير المؤمنين أشكو إليك ظلم هارون لي، وأسألك أن تدعو عليه، فتدعو له.

فقال: وما عليك، إن أصلحه الله لك وللكافة، أن يبقى على حاله، هو ذا أمضي إليه الساعة، وآمره أن يرجع لك، ويقضي دينك، ويوليك جند دمشق.

فكأنني أومي إليه بسبابتي، وأقول له: دمشق، دمشق، استقلالاً لها.

فيقول لي: حركت مسبحتك استقلالاً لدمشق، فكلما خف منها حظك، كان في العاقبة أجود لك.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 127 - 128.

فانتبهت، وأحضرت رجلاً كان مؤدبي في أيام المهدي، فسألته عن المسبحة، فقال: كان عبد الله بن العباس، يسمي السبابة: المسبحة، فما سؤال الأمير لي عنها؟ فقصصت عليه الرؤيا، وامتنع النوم عني، فأخذ يحدثني وأنا جالس في فراشي، إذ جاءني رسول الرشيد، فارتعت له ارتياعاً شديداً، ولم أعبأ بالمنام، وخفت أن يريدني لسوء يوقعه بي.

فقلت: أدافعه إلى أن تطلع الشمس، ثم يكون دخولي الدار نهاراً، فإن كان أرادني لغيلة لم تتم.

فتقاطرت رسله حتى أعجلوني عن الرأي، واضطروني إلى الركوب في الحال، فدخلت إليه وأنا شديد الجزع، وهو جالس في فراشه ينتحب.

فلما رآني، قال: سألتك بالله يا أخي هل رأيت الليلة في منامك شيئاً؟ فقلت: نعم، الساعة رأيت أمير المؤمنين المهدي.

فلما قلت له ذلك ازداد بكاؤه، ثم قال لي: ويحك، بالله، شكوتني إليه وسألته أن يدعو علي؟ فقلت: قد كان ذلك، ولكنه قال كذا وكذا، وشرحت له ما قال.

فقال: الساعة والله، جاءني في منامي، فقص علي جميع ما ذكرت، وقد وفى بوعد، والله لأمتثلن أمره، ولأصلن رحمك، كم دينك؟ قلت: كذا وكذا، فأمر بقضائه.

وقال: لا تبرح، حتى أصلي وأخرج، فأعقد لك على دمشق، فانتظرت حتى وجبت الصلاة، فصلى، وجاء وقت جلوسه، فجلس، واستدعاني فأظهر تكرمتي، وعقد لي لواء على دمشق، وأمر الناس، فساروا معي إلى منزلي، فعاد جاهي، وصلحت حالي.

مجلس غناء بمحضر الرشيد:

وروى حماد، عن أبي صدقة، وكان يحضر مجلس الرشيد مع المغنين، فربما غنى، وربما لم يغن، قال: فدعانا الرشيد يوماً، فدخلنا، والستارة دونه، وهو من خلفها جالس، فقال خادم من خلفها: غنّ يا بن جامع، فاندفع يغني بهذا الصوت:

قـف بالمنـازل سـاعة فتأمّـل	هـل بالـديار لزائـر مـن منـزل
أو لا ففـيم تـوقّفي وتلـدّدي	وسـط الـديار كـأنّني لـم أعقـل
مـا بالديار من البلى ولقد أرى	أن سـوف يحملنـي الهـوى فـي
وأحـقّ بمـن يبكـي بكـلّ محلّـة	محمـــــــــــــــــل
عـانٍ بكـلّ حمامـة سـجعت لـه	عرضـت لـه فـي منـزل للمعـول
يبكـي فتفضـحه الـدموع فعينـه	وغمامـة برقـت بنـوء الأعـزل
	ما عاش مخضلة كفيض الجدول

فقال الخادم: ليغن هذا الصوت منكم من كان يحسنه، فغنى كل من أحسنه منهم، فكأنه لم يطرب له.

فأقبل الخادم علي، فقال: إن كنت تحسن أن تغنيه، فغنه.

فقلت: نعم، فعجبوا من إقدامي على صوت لم يستطب من جماعتهم، فغنيته.

فقال الخادم: أحسنت، والله، فأعده، فأعدته، وأعاد الاستحسان، والأمر بإعادته على ذلك سبع مرات.

ثم قال لي الخادم: قم يا أبا صدقة، فادخل، حتى تغني أمير المؤمنين بحيث يراك، فدخلت، والمغنون كلهم محجوبون، فغنيته إياه، ثلاث مرات، فطرب في جميعهن.

وقال: أحسنت يا أبا صدقة.

فلما سمعت ما خصني به من استحسانه، قلت: يا أمير المؤمنين، إن لهذا الصوت حديثاً عجيباً، أفلا أحدثك به يا أمير المؤمنين، لعله يزداد حسناً.

فقال: بلى، هات.

فقلت: كنت يا سيدي، عبداً لبعض آل الزبير، وكنت خياطاً مجيداً، أخيط القميص بدرهمين، والسراويل بدرهم، وأؤدي ضريبتي إلى سيدي في كل يوم درهمين، وآخذ ما فضل عن ذلك، فبينما أنا ذات يوم منصرفاً، وقد خطت قميصاً لبعض الطالبيين، وقد أخذت منه درهمين، وانصرفت إلى موضع يجتمع فيه المغنون، كنت أقصده إذا فرغت من شغلي، لشغفي بالغناء، فلما صرت بحذاء بركة المهدي، إذا أنا بسوداء على رقبتها جرة، تريد أن تملأها من ماء العقيق، وهي تغني بهذا الصوت، أحسن غناء يكون، فأصابني من الطرب بغنائها ما أذهلني عن كل شيء.

فقلت لها: فداك أبي وأمين ألقي علي هذا الصوت.

فقالت: استحسنته؟ فقلت: إي والله.

فقالت: وحق القبر ومن فيه، لا أعدته إلا بدرهمين.

فدفعت الدرهمين إليها، فأحدرت جرتها عن رقبتها فارغة، فوضعتها على الأرض، وجلست عليها، وكأني أنظر إلى فقحتها وقد برزت عن الجرة نحو ذراع، وأقبلت تلقيه علي، وتوقع على الجرة، حتى أخذته، ثم أخذت الجرة على رقبتها، وانصرفت.

فحين انصرفت، أنسيت الصوت ولحنه، حتى كأني لم أسمعه قط، فبقيت متحيراً لا أدري ما أصنع، وانصرفت إلى سيدي بأسوء حال، وأكسف بال.

فلما رآني، قال: هات ضريبتك.

فلجلجت في كلامي، وقلت: يا سيدي، اسمع حديثي.

فقال: يا بن اللخناء، أبي تتعرض؟ فبطحني، وضربني مائة مقرعة، وحلق رأسي ولحيتي، ومنعني قوتي، وكان أربعة أرغفة، فلم يكن شيء من ذلك، أشد علي، من ذهاب الصوت مني، وبت ليلتي أسوء خلق الله حالاً، وأنا لا أعرف الجارية، ولا موضعها، ولا لمن هي.

فلما أصبحنا، خرجت ولها أطلبها في الموضع الذي لقيتها فيه، وأسأل الله أن يحوج أهلها إلى الماء، حتى تخرج لتأتيهم به، فأراها، فلم أزل أطلبها، لا أعمل شيئاً إلى العصر.

فبينما أنا كذلك، وإذا بها قد أقبلت، فلما رأتني، وما بي من الوله، قالت لي: ما لك، أنسيت الصوت؟ فقلت: إي والله، وضربت مائة مقرعة، ومنعت قوتي ليلتي، وحلقت رأسي ولحيتي.

فقلت: دع هذا عنك، فورب الكعبة، لا سمعته مني، فضلاً عن أخذه، إلا بدرهمين.

فقلت: الله، الله، فيّ، فيمرن علي الليلة مثل ما مر علي البارحة، فارحميني.

فقالت: قد سمعت اليمين، وذهبت لتمضي.

فقلت: اصبري، وجئت إلى بقال كان يعاملني، فرهنت عنده الجملين، على درهمين، وجئت بهما إليها، فأخذتهما، وجعلتهما في فيها.

فلما بدأت بالصوت، ذكرته، فقلت: الله، الله، ردي علي الدرهمين، فلا حاجة بي إلى غنائك.

فقالت: أنت أحمق، ولست تعرف هذا الأمر، لئن لم أردهه عليك مائة مرة ما حصل لك منه شيء، وجلست على الجرة، فغنته مائة مرة، أعدها عليها حتى فهمته، وصرت به أمهر منها، وانصرفت.

فساعة فارقتها، لحقتني الندامة، وقلت: سيلحقني الليلة أكثر مما لحقني البارحة، لفقد الجلمين.

فرجعت إلى مولاي، فحين رآني، قال: هات ضريبتك.

فقلت له: اسمع مني.

قال: أي شيء أسمع، يا بن الفاجرة، أما كفاك ما مر بك أمس، ووثب إلى السوط.

فقلت له: اسمع، واصنع ما شئت.

فقال: هات، فغنيته الصوت.

فقال: أحسنت، والله، يعز علي ما أصابك، أما الضرب فقد مضى، ولا حيلة فيه، وأما قوتك فمردود، وأما ضريبتك، فساقطة عنك ما عشنا ولو مت أنا وعيالي جوعاً، فأنت اليوم واحداً منا أبداً ما بقينا، فهذا خبر

الصوت.

وكان المغنون الذين حضروا إبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وابن جامع، ومسلم بن سلام.

فأمر لكل واحد منهم بألف دينار، وأمر لي بعشرة آلاف دينار، مثل ما أمر لجماعتهم، ثم استدعى ألف دينار، فقال: خذ هذه بدل المائة مقرعة التي ضربت.

فانصرفت، والمغنون يتعجبون مما جرى[1].

عبد الله بن مالك الخزاعي يتسلم كتاباً من الرشيد يخبره بمقتل جعفر البرمكي:

وجد في بعض الكتب: أن البرامكة، قصدت عبد الله بن مالك الخزاعي، بالعداوة، وكان الرشيد حسن الرأي فيه، فكانوا يغرونه به، حتى قالوا له: لا بد من نكبته.

فقال: ما كنت لأفعل هذا، ولكن أبعده عنكم.

فقالوا: ينفى.

فقال: لا، ولكن أوليه ولاية دون قدره، وأخرجه إليها.

فرضوا بذلك، فكتبوا له على حران والرها فقط، وأمروه بالخروج، عن الخليفة.

قال عبد الله: فودعتهم واحداً واحداً، حتى صرت إلى جعفر لأودعه.

فقال لي: ما على الأرض عربي أنبل منك يا أبا العباس، يغضب عليك الخليفة، فيوليك حران والرها؟.

فقلت: فما ذنبي حتى غضب علي، وأي شيء جرى مني حتى أوجب الذي أن يفعل بي هذا؟.

قال جزاؤك أن: يضرب وسطك، وتصلب نصفاً في جانب، ونصفاً في جانب.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 163 ، 164.

فقلت: العجب مني حيث صرت إليك، ونهضت، وخرجت.

وقطعت طريقي بالهم، والغم، مما دفعت إليه، وأني لا آمنهم، مع غيبتي، على السعاية علي.

فبينما أنا في عشية يوم، على باب الدار التي نزلتها، جالساً على كرسي، إذ أقبل إلي مولى لي، فقال لي سرًّا: قد قتل جعفر بن يحيى البرمكي.

فتوهمت أنه هو أمره بذلك ليجد علي حجة ينكبني بها، فبطحته، وضربته ثلاثمائة مقرعة، وحبسته، وبت بليلة طويلة على السطح في داري.

فلما كان في السحر، إذا صوت حلق البريد، فارتعت، ونزلت عن السطح.

وقلت في نفسي: إن هجم علي صاحب البريد فهي بلية، وإن ترجل لي ففرج.

فلما بصر بي صاحب البريد ترجل لي، فطابت نفسي، ودفع إلي كتاباً من الرشيد، يخبرني فيه بقتله جعفر، وقبضه على البرامكة، ويأمرني بالشخوص إلى حضرته.

فشخصت، فلما وصلت إليه، عاملني من الإكرام والإنعام بما زاد على أمنيتي.

وخرجت، فأتيت الجسر، فوجدت جعفراً، قد ضرب وسطه، وصلب نصفه في جانب، ونصفه في الجانب الآخر[1].

غضب الرشيد على مروان بن أبي حفصة لمدحه معن بن زائدة وضربه مائة سوط:

قال عبد الرحمن بن أخي الأصمعي، عن عمه، قال: بعث إلي الرشيد في وقت لم تكن عادته أن يستدعيني في مثله، وجاءني الرسول بوجه منكر، فأحضرني إحضاراً عنيفاً منكراً مستعجلاً، فوجلت وجلاً شديداً،

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 194 ، 195.

وخفت، وجزعت.

فدخلت، فإذا الرشيد على بساط عظيم، وإلى جانبه كرسي خيزران، عليه جويرية خماسية، فسلمت، فلم يرد علي، ولا رفع رأسه إلي، وجعل ينكت الأرض بإصبعه.

فقلت: سعي بي عنده بباطل، يهلكني قبل كشفه، وأيست من الحياة.

فرفع رأسه، وقال: يا أصمعي، ألا ترى الدعي بن الدعي، اليهودي، عبد بني حنيفة، مروان بن أبي حفصة، يقول لمعن ابن زائدة، وإنما هو عبد من عبيدنا:

أقمنا باليمامة بعد معنٍ ... مقاماً لا نريد به زيالا
وقلنا أين نذهب بعد معنٍ ... وقد ذهب النوال فلا نوالا
وكان النّاس كلّهم لمعنٍ ... إلى أن زار حفرته عيالا

فقال: إن النوال قد ذهب، مع بقائنا، فما يصنع بنا إذن؟ ولم يرض حتى جعلني وخاصتي، عيالاً لمعن، والله، لأفعلن به ولأصنعن.

فقلت: يا أمير المؤمنين، عبد من عبيدك، أنت أولى بأدبه، أو العفو عنه.

فقال: علي بمروان، فدخل عليه.

فقال: السياط، فأخذ الخدم يضربونه بها، وهو يصيح: يا أمير المؤمنين، ما ذنبي؟ يا أمير المؤمنين، استبقني، إلى أن ضرب أكثر من مائة سوط.

فقال: يا أمير المؤمنين، اعف عني، واذكر قولي فيك، وفي آبائك.

فقال: يا غلام، كف عنه، ثم قال: ما قلت، يا كلب؟.

فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أم تسترون هلالها
أم تدفعون مقالة عن ربّه ... جبريل بلّغها النّبيّ فقالها
شهدت من الأنفال آخر آيةٍ ... بتراثهم فأردتم إبطالها
لا تولغنّ دماءكم أشبالها

فدعوا الأسود خوادراً في غيلها ::

:

::

:

قال: فأمر بإطلاقه، وأن يدفع إليه ثلاثون ألف درهم.

فلما خرج، قال: يا أصمعي تدري من هذه الصبية؟.

قلت: لا أدري.

قال: هذه مؤنسة بنت أمير المؤمنين، فدعوت له ولها، وتأملته، فإذا هو شارب ثمل.

قال: قم فقبل رأسها.

فقلت: أفلت من واحدة، ودفعت إلى أخرى أشد منها، إن أطعته أدركته الغيرة فقتلني، وإن عصيته قتلني بمعصيتي له، فلما أحب الله عز وجل من تأخير أجلي، ألهمني أن وضعت كمي على رأسها، وقبلت كمي.

فقال: والله يا أصمعي، لو أخطأتها لقتلتك، أعطوه عشرة آلاف درهم، والحق بدارك.

فخرجت وأنا ما أصدق بالسلامة، فكيف بالحباء والكرامة[1].

أول دخول الأصمعي إلى الرشيد:

وذكر أبو الحسين أن الأصمعي قال: لزمت باب الرشيد، فكنت أقيم عليه طول نهاري، وأبيت بالليل مع الحراس أسامرهم، وأتوقع طالع سعد، حتى كدت أموت ضرًّا وهزالاً، وأن أصير إلى ملالة، ثم أتذكر ما في عاقبة الصبر من الفرج، فأؤمل صلاح حالي باتفاق محمود، فأصبر.

فبينا أنا ذات ليلة، وقد قاسيت فيها السهاد والأرق، إذ خرج بعض الحجاب، فقال: هل بالباب أحد يحسن الشعر؟ فقلت: الله أكبر، رب مضيق فكه التيسير، أنا ذلك الرجل.

فأخذ بيدي، وقال: ادخل، فإن ختم لك بالسعادة، فلعلها أن تكون ليلة تقر عينك فيها بالغنى.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 200.

فقلت: بشرك الله بخير، ودخلت، فواجهت الرشيد في البهو جالساً، والخدم قيام على رأسه، وجعفر بن يحيى البرمكي، جالس إلى جنبه.

فوقف بي الحاجب حيث يسمع تسليمي، فسلمت، ثم قال: تنح قليلاً حتى تسكن، إن كنت وجدت روعة.

فقلت في نفسي: فرصة تفوتني آخر الدهر، إن شغلت بعارض، فلا أعتاض منها إلا كمداً، حتى يصفق علي الضريح، فقلت: إضاءة كرم أمير المؤمنين، وبهاء جده، يجردان من نظر إليه من أذية النفس، يسألني - أيده الله - فأجيب، أو أبتدئ فأصيب؟ فتبسم إلي جعفر، وقال: ما أحسن ما استدعى الإحسان، وحري به أن يكون محسناً.

ثم قال لي: أشاعر أنت، أم راوية للشعر؟ قلت: راوية.

قال: لمن؟ قلت: لكل ذي جد وهزل، بعد أن يكون محسناً.

فقال: أنصف القارة من راماها.

ثم قال: ما معنى هذه الكلمة؟ قلت: لها وجهان، زعمت التبابعة، أنه كان لها رماة لا تقع سهامها في غير الحدق، فكانت تكون في الموكب الذي يكون فيه الملك، فخرج فارس معلم بعذبات سمور في قلنسوته، فنادى: أين رماة الحدق؟ فقالت العرب: أنصف القارة من راماها.

والوجه الآخر: الموضع المرتفع من الأرض، والجبل الشاهق، فمن ضاهاه بفعاله فقد راماه، وما أحسب هذا هو المعنى، لأن المراماة، كالمعاطاة، وكما أن المعاطاة للنديم، هي أن يأخذ كاساً، ويعطي كأساً، كذلك المراماة، أن يرميها وترميه.

فقال: أصبت، فهل رويت للعجاج بن رؤبة شيئاً؟ قلت: الأكثر.

قال: أنشدني قوله:

أرّقني طارق همٍّ طرقا

فمضيت فيها مضي الجواد، تهدر أشداقي، فلما بلغت مدحه لبني أمية، ثنيت عنان اللسان، لامتداحه المنصور.\

فقال: أعن عمد، أو غير عمد؟ فقلت: عن عمد، تركت كذبه إلى صدقه، بما وصف فيه المنصور من مجده.

فقال جعفر: بارك الله عليك، مثلك يؤهل لمثل هذا الموقف.

ثم التفت إلي الرشيد، فقال: أرويت لعدي بن الرقاع شيئاً؟ قلت: الأكثر، قال: أنشدني قوله:

بانت سعاد وأخلفت ميعادها

فابتدأت تهدر أشداقي، فقال جعفر: يا هذا أنشد على مهل، فلن تنصرف إلا غانماً.

فقال الرشيد: أما إذ قطعت علي، فأقسم، لتشركني في الجائزة.

قال: فطابت نفسي، فقلت: أفلا ألبس أردية التيه على العرب، وأنا أرى الخليفة والوزير يتشاطران لي المواهب، فتبسم، ومضيت فيها.

ثم قال: أرويت لذي الرمة شيئاً؟ قلت: الأكثر، قال أنشدني قوله:

أمن حذر الهجران قلبك يطمح

فقلت: عروس شعره.

قال: فأيه الختن؟ قلت: قوله، يا أمير المؤمنين:

ما بال عينيك منها الماء ينسكب

فقال: امض فيها، فمضيت فيها، حتى انتهيت إلى وصفه جمله.

فقال جعفر: ضيق علينا ما اتسع من مسامرة السهر، بجمل أجرب.

فقال الرشيد: اسكت، فهي التي سلبتك تاج ملكك، وأزعجتك عن قرارك، ثم جعلت جلودها سياطاً، تضرب بها أنت وقومك عند الغضب.

فقال جعفر: الحمد لله، عوقبت من غير ذنب.

فقال الرشيد: أخطأت في كلامك، لو قلت: أستعين بالله، قلت صواباً، إنما يحمد الله تعالى على النعم، ويستعان على الشدائد.

ثم قال لي: إني لأجد ملالاً، وهذا جعفر، ضيف عندنا، فسامره باقي ليلتك، فإذا أصبحت، فإن وضاء الخادم، يلقاك بثلاثين ألف درهم.

قال: ثم قربت إليه النعل، فجعل الخادم يصلح عقب النعل في رجله، فقال: ارفق ويحك، أحسبك قد عقرتني.

فقال جعفر: قاتل الله العجم، لو كانت سندية، ما احتاج أمير المؤمنين إلى هذه الكلفة.

فقال: هذه نعلي ونعل آبائي، ما تدع نفسك والتعرض لما تكره.

ثم قال لي جعفر: لولا أن المجلس مجلس أمير المؤمنين، ولا يجوز لي فيه أن آمر بمثل ما أمر به، لأمرت لك بثلاثين ألف درهم، ولكني آمر لك بتسعة وعشرين ألف درهم، فإذا أصبحت فاقبضها والزم الباب.

قال: فما صليت من غد الصبح، إلا وفي منزلي ما أمر لي به، فأيسرت ولزمتهما، وزال ما كنت فيه من الضر، وأتى الإقبال، والنعمة والسلامة، وأفلحت، ولله الحمد[1].

يحيى البرمكي يغري الرشيد بجعفر بن الأشعث:

قال علي بن محمد بن سليمان بن عبد الملك بن الحارث بن نوفل: حدثني أبي، أن بدء سعي يحيى بن خالد البرمكي، على موسى بن جعفر، كان سببه وضع الرشيد ابنه محمداً في حجر جعفر بن محمد بن الأشعث، فساء ذلك يحيى، وقال: إذا مات الرشيد، وأفضى الأمر إلى ولده محمد انقضت دولتي، ودولة ولدي، وتحول الأمر إلى جعفر وولده، وقد كان عرف مذهب جعفر في التشيع، فأظهر له أنه على مذهبه، فلما أنس به جعفر، أفضى إليه بجميع أمره، وذكر له ما هو عليه في موسى بن جعفر.

وكان الرشيد يرعى له موضعه، وموضع أبيه من الخلفاء، فكان يقدم في أمره ويؤخر، ويحيى لا يألو أن يحطب عليه، إلى أن دخل يوماً على الرشيد، وجرى بينهما حديث، فمن جعفر بخدمته وخدمة أبيه، فأمر له بعشرين ألف دينار، فأمسك يحيى أياماً، ثم قال للرشيد: قد كنت أخبرك عن جعفر ومذهبه، فأكذب عنه، وها هنا أمر فيه الفصل، إنه لا يصير إليه مال إلا أخرج خمسه فوجه به إلى موسى بن جعفر، ولست أشك أنه فعل ذلك في العشرين ألف دينار التي أمرت له بها.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 237 ، 238.

فأرسل الرشيد إلى جعفر ليلاً يستدعيه، وقد كان جعفر عرف سعاية يحيى عليه، مساساً للعداوة، فلما طرق جعفراً رسول الرشيد لم يشك أنه سمع من يحيى فيه، فأفاض عليه ماءً، ودعا بمسك وكافور، وتحنط بهما، ولبس بردة، وأقبل إلى الرشيد، فلما دنا منه ليخاطبه، شم منه رائحة الكافور، ورأى البردة، فقال: ما هذا يا جعفر؟ قال: يا أمير المؤمنين، قد علمت أنه يسعى علي عندك، فلما جاءني رسولك في هذه الساعة، علمت أنك أرسلت إلي لتقتلني.

قال: كلا، ولكن أخبرت أنك تبعث إلى موسى بن جعفر من كل ما يصير إليك بخمسه، وأنك قد فعلت ذلك في العشرين ألف دينار، وأحببت أن أعلم ذلك.

فقال جعفر: الله أكبر، يا أمير المؤمنين، مر بعض خدمك يذهب فيأتيك بها بخاتمها.

فقال الرشيد لبعض الخدم: خذ خاتم جعفر وانطلق حتى تأتي بهذا المال، وأسمى له جاريته التي ماله عندها، فدفعت إليه البدر بخواتمها، فأتى بها إلى الرشيد.

فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، هذا أول ما تعرف به كذب من سعى بي إليك.

فقال: صدقت، انصرف آمناً، فإني لا أقبل فيك، بعد هذا قول أحد[1].

اشترى الرشيد لطبيبه ضياعاً غلتها ألف ألف درهم:

وحدث جبريل بن بختيشوع، قال: كنت مع الرشيد، بالرقة، ومعه المأمون ومحمد، وكان الرشيد رجلاً كثير الأكل والشرب، فأكل في بعض الأيام أشياء خلط فيها، ودخل المستراح، فغشي عليه فيه.

فأخرج وقد قوي عليه الغشي، حتى لم يشك غلمانه في موته، وحضر ابناه، وشاع عند الخاصة والعامة خبره.

وأرسل إلي، فجئت، فجسست عرقه، فوجدت نبضاً خفيفاً، وأخذت

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 289.

عرقاً في رجله فكان كذلك، وقد كان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاءً وحركة الدم.

فقلت لهم: إنه لم يمت، والصواب أن يحجم الساعة.

فقال كوثر الخادم، لما يعرف من أمر الخلافة وإفضائها إلى صاحبه محمد: يا ابن الفاعلة، تقول أحجموا رجلاً ميتاً؟ لا يقبل قولك ولا كرامة.

فقال المأمون: الأمر قد وقع، وليس يضر أن نحجمه.

وأحضر الحجام، فتقدمت، وقلت له: ضع محاجمك، ففعل، فلما مصها رأيت الموضع قد احمر، فطابت نفسي بذلك، وعلمت أنه حي.

فقلت للحجام: أشرط، فشرط، فخرج الدم، فسجدت شكراً لله تعالى، وجعل كلما خرج الدم، تحرك رأسه، وأسفر لونه، إلى أن تكلم.

فقال: أين أنا؟ فطيبت نفسه، وغديناه بصدر دراج، وسقيناه نبيذاً، وما زلت أسعطه بالطيب في أنفه، حتى تراجعت إليه قوته، وأدخل الخاصة والقواد إليه، فسلموا عليه من بعد، لما كان قد شاع من خبره، ثم تكاملت قوته، ووهب الله له العافية.

فلما برأ من علته، دعا صاحب حرسه، وحاجبه، وصاحب شرطته، فسأل صاحب الحرس عن غلته في كل سنة، فعرفه أنها ألف ألف درهم، وسأل صاحب شرطته عن غلته، فعرفه أنها خمسمائة ألف درهم.

ثم قال: يا جبريل: كم غلتك؟ فقلت: خمسون ألف درهم.

فقال: ما أنصفناك، حيث غلات هؤلاء وهم يحرسوني، ويحجبوني عن الناس، على ما هي عليه، وتكون غلتك ما ذكرت، وأمر بإقطاعي ما قيمته ألف ألف درهم.

فقلت: يا سيدي ما لي حاجة إلى الإقطاع، ولكن تهب لي ما أشتري به ضياعاً غلتها ألف ألف درهم، ففعل، وتقدم بمعاونتي على ابتياعها.

فابتعت بهباته، وجعالاته، ضياعاً غلتها ألف ألف درهم، فجميع ما أمتلكه ضياع لا إقطاع فيها[1].

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 312.

موقف هارون مع نقفور:

هارون الرشيد كانت تسلم له الجزية من كل الأقاليم، وكان يحكم اثنين وعشرين دولة من دول العالم الآن، وهو في بغداد، وقد صعد مرة على قصره في بغداد، وكان مكتوباً على سيفه الحاج الغازي هارون الرشيد، يغزو سنة ويحج سنة، وكان يتنفل في النهار مائة ركعة، صعد على القصر وكان يستبشر بالمطر، فالناس في قحط، فمرت سحابة، قال: اللهم اسقنا الغيث، اللهم اسقنا الغيث، فمرت السحابة، فتبسم وقال: أمطري أنى شئت، فإن خراجك سوف يأتيني إن شاء الله، يقول: اذهبي حيثما شئت، إن تريدين الذهاب إلى إفريقيا، فإفريقيا في حكمي، وإن تريدين آسيا إلى السند، فالسند لنا، وإن تريدين الشمال إلى طاشقند فطاشقند لنا.

ماتت امرأة كانت تحكم الروم، فتولى نقفور بعدها، فكتب لهارون الرشيد كتاباً، وهو لا يعرف هارون الرشيد يقول: أمَّا بَعْد:

فإن المرأة التي كانت قبلي كانت ضعيفة العقل، وكانت تدفع لك الجزية، وأما أنا الآن فلن أدفع لك درهماً ولا ديناراً، فوصل الكتاب وقرأه هارون الرشيد، ومن الاستهتار به أنه لم يكتب في ورقة أخرى، بل أخرج القلم وكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم.

أمَّا بَعْد فالجواب ما تراه لا ما تسمعه.

ثم قال لقائده: جهز جيشاً، فجهز جيشاً وما أمسى إلا وقد طوق الروم وأخذوا قائدهم وكتفوه، وقالوا له: هل تدفع الجزية؟ قال: أدفع الجزية، قالوا: مضاعفة، قال: مضاعفة، فقد كانوا يدفعون على الواحد عشرة دراهم، فجعل هارون على الواحد عشرين درهماً.

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ∴ يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلمِ

أما نصف البيت فنؤمن به، وأما نصفه الآخر فنكفر به، ولكن نقول:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ∴ وتتقى مربض المستأسد الضاري

فالأمة تعيش في سؤدد وقوة وعظمة حتى يتخلى الناس عن الجهاد، ويتولى جيلها وشبابها عن حمل السلاح، وحتى يكون الكافر المستعمر يدرب قوته، ويجرب سلاحه.

بين الرشيد ورجل أراد توليته القضاء:

أحضر الرشيد رجلاً ليولّيه القضاء فقال له: إني لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه.قال الرشيد: فيك ثلاث خلال: لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة. ولك حلم يمنعك من العجلة، ومن لم يعجل قلّ خطؤه. وأنت رجل تشاور في أمرك ومن شاور كثر صوابه، وأما الفقه فسينضم إليك من تتفقّه به. فولي ما وجدوا فيه مطعناً[1].

بين الرشيد والعماني الراجز:

دخل العماني الراجز على الرشيد لينشده وعليه قلنسوة طويلة وخفّ ساذج، فقال له الرشيد: يا عماني، إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفّان دلقمان فبكّر إليه من الغد وقد تزيّا بزيّ الأعراب ثم أنشده وقبّل يده وقال: يا أمير المؤمنين قد والله أنشدت مروان ورأيت وجهه وقبّلت يده وأخذت جائزته ثم يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ثم السّفاح ثم المنصور ثم المهدي. كلّ هؤلاء رأيت وجوههم وقبّلت أيديهم وأخذت جوائزهم، إلى كثير من أشباه الخلفاء وكبار الأمراء والسادة والرؤساء، والله مارأيت فيهم أبهى منظراً ولا أحسن وجهًا ولا أنعم كفّاً وأندى راحةً منك يا أمير المؤمنين. فأعظم له الجائزة على شعره وأضعف له على كلامه وأقبل عليه فبسطه حتى تمنى جميع من حضر أنه قام ذلك المقام.

المديح فيك دون قدرك والشعر فيك فوق قدري:

قال الرشيد يوماً لبعض الشعراء: هل أحدثت فينا شيئاً؟ فقال: يا أمير المؤمنين المديح فيك دون قدرك والشعر فيك فوق قدري، ولكنّي أستحسن قول العتّابيّ:

(1) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، 7/1.

ماذا يرى قائلٌ يثني عليك وقد :: ناداك في الوحي تقديسٌ وتطهير
فتّ المدائح إلا أن ألسننا :: مستنطقات بما تخفي الضمائير
في عترة لم تقم إلا بطاعتهم :: من الكتاب ولك تقض المشاعير
هذي يمينك في قرباك صائلة :: وصارمٌ من سيوف الهند مأثور[1]

الرشيد والمستقية:

ويحكى أن هارون الرشيد مر في بعض الأيام وبصحبته جعفر البرمكي وإذا هو بعدة بنات يستقون الماء فعرج عليهن يريد الشرب وإذا إحداهن تقول:

قولي لطيفك ينثني :: عن مضجعي وقت المنام
كي أستريح وتنطفي :: نار تأجج في العظام
دنف تقلبه الأكف :: على بساط من سقام

فأعجب أمير المؤمنين ملاحتها وفصاحتها. فقال لها: يا بنت الكرام هذا من قولك أم من منقولك؟ قالت: من قولي.

قال: إن كان كلامك صحيحاً فأمسكي المعنى وغيري القافية فأنشدت تقول:

قولي لطيفك ينثني :: عن مضجعي وقت الوسن
كي أستريح وتنطفي :: نارٌ تأجج في البدن
دنف تقلبه الأكف :: على بساط من شجن
أما أنا فكما علمـ :: ـت فهل لوصلك من ثمن؟

(1) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، 39/1.

فقال لها: والآخر مسروق.

قالت: بل كلامي.

فقال: إن كان كلامك أيضاً فأمسكي المعنى وغيري القافية. فقالت:

::
:
قـــولي لطيفـــك ينثنـــي :: عـن مضـجعي وقـت الرقـاد
كـــي أســـتريح وتنطفـــي : نـــار تـــأجج فـــي الفـــؤاد
دنـــف تقلبـــه الأكـــف :: علـــى بســـاط مـــن حـــداد
أمـــا أنـــا فكمـــا علمـــ : ت فهـل لوصـلك مـن سـداد؟
::
:

فقال لها: والآخر مسروق.

فقالت: بل كلامي.

فقال لها: إن كان كلامك فأمسكي المعنى وغيري القافية. فقالت:

::
:
قـــولي لطيفـــك ينثنـــي :: عـن مضـجعي وقـت الهجـوع
كـــي أســـتريح وتنطفـــي : نـــار تـــأجج فـــي الضـــلوع
دنـــف تقلبـــه الأكـــف :: علـــى بســـاط مـــن دمـــوع
أمـــا أنـــا فكمـــا علمـــ : ت فهـل لوصـلك مـن رجـوع؟
::
:

فقال لها أمير المؤمنين: أنت من أي هذا الحي؟ قالت: من أوسطه بيتاً، وأعلاه عموداً.

فعلم أمير المؤمنين أنها بنت كبير الحي. ثم قالت: وأنت من أي راعي الخيل؟ فقال: من أعلاها شجرة وأينعها ثمرة.

فقبلت الأرض وقالت: أيد الله أمير المؤمنين ودعت له ثم انصرفت مع بنات العرب.

فقال الخليفة لجعفر: لا بد من أخذها فتوجه جعفر إلى أبيها، وقال له: أمير المؤمنين يريد بنتك.

فقال: حبًّا وكرامة، تهدى جارية إلى أمير المؤمنين مولانا.

ثم جهزها وحملها إليه فتزوجها ودخل بها فكانت عنده من أعز نسائه وأعطى والدها ما يستره بين العرب من الأنعام. ثم بعد مدة انتقل والدها بالوفاة إلى رحمة الله تعالى، فورد على الخليفة خبر وفاته فدخل عليها وهو كئيب، فلما شاهدته وعليه الكآبة، نهضت ودخلت إلى حجرتها وقلعت ما عليها من الثياب الفاخرة ولبست ثياب الحزن وقامت النعي له.

فقيل لها: ما سبب هذا؟ فقالت: مات والدي، فمضوا إلى الخليفة فأخبروه فقام وأتى إليها وسألها من أعلمها بهذا الخبر؟ قالت: وجهك يا أمير المؤمنين.

قال: كيف ذلك؟ قالت: منذ أنا عندك ما رأيتك هكذا ولم يكن لي من أخاف عليه إلا والدي لكبره، ويعيش رأسك أنت يا أمير المؤمنين. فترغرغت عيناه بالدموع وعزاها فيه، وقامت مدة، وهي حزينة على والدها ثم لحقت به رحمة الله عليهم أجمعين.

الضيف الطارق:

ويحكى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة فقام يتمشى في قصره بين المقاصير، فرأى جارية من جواريه نائمة فأعجبته، فداس على رجليها فانتبهت فرأت أمير المؤمنين، فاستحيت منه وقالت: يا أمين الله ما هذا الخبر.

فأجابها بقوله:

قلت ضيف طارق في أرضكم ⁝ هل تضيفوه إلى وقت السحر

فأجابته تقول:

بسرور وهناء سيدي ⁝ أخدم الضيف بسمعي والبصر

فبات عندها إلى الصباح، فسأل أمير المؤمنين من بالباب من الشعراء؟ قيل له: أبو نواس. فمر به فدخل عليه. فقال: هات علي يا أمين الله ما هذا الخبر، فأنشأ يقول:

طال ليلي حين وافاني السهر ... فتفكرت فأحسنت الفكر
قمت أمشي في المجالي ساعة ... ثم أجري في مقاصير الحجر
فإذا وجه جميل مشرقٌ ... زانه الرحمن من بين البشر
فلمست الرجل منها موطئاً ... فدنت مني ومدت للبصر
وأشارت لي بقول مفصح ... يا أمين الله ما هذا الخبر؟
قلت ضيف طارق في أرضكمْ ... هل تضيفوه إلى وقت السحر
فأجابت بسرور سيدي ... أخدم الضيف بسمعي والبصر

قال: فتعجب أمير المؤمنين من ذلك وأمر له بصلة[1].

كلام الليل يمحوه النهار:

يحكى أن هارون الرشيد هجر جارية له ثم لقيها في بعض الليالي في القصر سكرى تدور في جوانب القصر وعليها مطرف خز، وهي تسحب أذيالها من التيه والعجب، وسقط رداؤها عن منكبيها، والريح أبان نهديها كأنهما رمانتان، ولها ردفان ثقيلان، فراودها عن نفسها، فقالت: يا أمير المؤمنين! هجرتني هذه المدة وليس لي علم بملاقاتك فأنظرني إلى غد حتى أتهيأ وآتيك.

فلما أصبح قال للحاجب: لا تدع أحداً يدخل علي إلا فلانة، وانتظرها فلم تجئ فقام ودخل عليها وسألها إنجاز الموعد فقالت: يا أمير المؤمنين، كلام الليل يمحوه النهار. فقام واستدعى من بالباب من الشعراء فدخل عليه أبو نواس والرقاشي وأبو مصعب فقال لهم: هاتوا علي، كلام الليل يمحوه النهار. فقال الرقاشي: أنا قائل في ذلك ثلاثة أبيات، وأنشأ يقول:

أتسلوها، وقلبك مستطار ... وقد منع القرار فلا قرار
وقد تركتك صباً مستهاماً ... فتاة لا تزور ولا تزار
فولت وانثنت تيهاً، وقالت ... كلام الليل يمحوه النهار

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 42.

وقال أبو مصعب: وأنا قائل في ذلك ثلاثة أبيات، وأنشأ يقول:

أمـــا والله لـــو تجـــدين وجـــدي :: لمـــا وســـعتك فـــي بغـــداد دار
أمـــا يكفيـــك أن العـــين عبـــرى :: ومـــن ذكـــراك فـــي الأحشـــاء نـــار
تبســـمت الفتـــاة بغيـــر ضـــحك :: كـــلام الليـــل يمحـــوه النهـــار

وقال أبو نواس: أنا قائل في ذلك أربعة أبيت، وأنشأ يقول:

وخود أقبلت في القصر سكرى :: ولكـــن زيـــن الســـكر الوقـــار
وهـــز الـــريح أردافـــاً ثقـــالاً :: وغصـــناً فيـــه رمـــانٌ صـــغار
وقـد سـقط الـردا عـن منكبيهـا :: مـــن التخمـــيش وانحـــل الإزار

فقلت: الوعد سيدتي، فقالت: كلام الليل يمحوه النهار

فقال الرشيد: قاتلك الله كأنك كنت معنا أو مطلعاً علينا.

وأمر لكل بخلعة سنية وخمسة آلاف درهم، ولأبي نواس بعشرة آلاف درهم.

أمعنا كنت؟

وذكر الخطيب في بعض مصنفاته أن الرشيد دخل يوماً قبل وقت الظهر، في مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منها، فوجدها تغتسل، فلما رأته تجللت بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئاً، فأعجبه ذلك الفعل واستحسنه، ثم عاد إلى مجلسه وقال: من بالباب من الشعراء؟ قالوا له: أبو نواس وبشار.

فقال: ليحضرا جميعاً.

فأحضرا، فقال الرشيد ليقل كل منكما أبياتاً توافق ما في نفسي، فأنشأ بشار يقول:

تحببـتكم والقلـب صـار إليكمـو :: بنفســي ذاك المنــزل المتحبــب
إذا ذكروا الهجران لا عن ملالـةٍ :: وذكـراهم، ينمـي إلـي محبـب
وقـالوا تجنبنـا، ولا قـرب بيننـا :: فكيـف وأنـتم حـاجتي تتجنبـوا

على أنهم أحلى من الشهد عندنا : وأعذب من ماء الحياة وأطيب

فقال: أحسنت، ولكن ما أصبت ما في نفسي، فقل أنت يا أبا نواس، فجعل يقول:

نضت عنها القميص لصب ماء :: فورد خدها فرط الحياء
وقابلت الهواء، وقد تعرت : بمعتدلٍ أرق من الهواء
ومدت راحةً، كالماء منها :: إلى ماء معد في إناء
فلما أن قضت وطراً وهمت : على عجل إلى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التداني :: فأسبلت الظلام على الضياء
فغاب الصبح منها تحت ليلٍ : وظل الماء يقطر فوق ماء
فسبحان الإله وقد براها :: كأحسن ما يكون من النساء

فقال الرشيد: سيفاً ونطعاً.

فقال له: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: أمعنا كنت؟ قال: لا والله ولكن شيء خطر ببالي.

فأمر له بأربعة آلاف درهم وصرفه[1].

أجود أخبار النساء:

ويحكى أن أمير المؤمنين الرشيد أرق ذات ليلة أرقاً شديداً، فقام من فراشه وتمشى من مقصورة إلى مقصورة، وقلقه زائد ونفسه محصورة، فلما أصبح قال: علي بالأصمعي، فخرج الطواشي إلى البوابين، فقال لهم: يقول لكم أمير المؤمنين أرسلوا أحداً خلف الأصمعي. فلما حضر أعلم الخليفة فأجلسه ورحب به وقال: يا أصمعي أريد منك أن تحدثني بأجود ما سمعت من أخبار النساء وأشعارهن؟ فقال: سمعاً وطاعة: لقد سمعت كثيراً ولم يعجبني سوى ثلاثة أبيات أنشدهن ثلاث بنات.

فقال له: حدثني حديثهن.

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 43.

فقال: اعلم إذًا أمير المؤمنين، أني توجهت سنة إلى البصرة فاشتد علي الحر فطلبت مقيلاً أقيل فيه فلم أجد، فبينما أنا أتلفت يميناً وشمالاً، إذا أنا بساباط مكنوس مرشوش، وفيه دكة من خشب، وعليها شباك مفتوح تفوح منه رائحة المسك، فدخلت الساباط وجلست على الدكة وأردت الاضطجاع، فسمعت كلاماً عذباً من فم جارية حسناء، وهي تقول: يا أختي! إنا جلسنا يومنا هذا على وجه الصبوح، تعالين نطرح ثلاثمائة دينار وكل منا تقول بيتاً من الشعر، فكل من قالت البيت الأعذب الأملح كانت الثلاثمائة دينار لها، فقلن: حبًّا وكرامة، فقالت الكبرى:

عجبت له أن زار في النوم مضجعي :: ولو زارني مستيقظًا كان أعجبا

فقالت الوسطى:

وما زارني في النوم إلا خياله :: فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحبا

فقالت الصغرى:

بنفسي وأهلي من أرى كل ليلةٍ :: ضجيعي ورياه من المسك أطيبا

فقلت: إن كان لهذا المقال جمالٌ، فقد تم الأمر على كل حال. فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف، وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه جارية، وهي تقول: اجلس يا شيخ، فطلعت على الدكة ثانياً وجلست، فدفعت إلي ورقة فنظرت خطًّا في نهاية الحسن مستقيم الألفات مجوف الهاءات مدور الواوات مضمونه: نعلم الشيخ، أطال الله بقاءه، أننا ثلاث بنات أخواتٍ جلسنا على وجه الصبوح وطرحنا ثلاثمائة دينار، وشرطنا أن كل من قالت البيت الأعذب الأملح كان لها الثلاثمائة دينار، وقد جعلناك الحكم في ذلك، فاحكم بما تراه والسلام.

فقلت للجارية: علي بدواة وقرطاس.

فغابت قليلاً وخرجت إلي بدواة مفضضة وأقلام مذهبة، فأنشأت أقول:

أحدث عن خود تحدثن مرة :: حديث امرئ ساس الأمور
ثلاث كبكرات الصحاري جحافلٍ : وجربا
خلون وقد نامت عيونٌ كثيرةٌ :: حللن بقلبٍ للمشوق معذبا

فبحن بما يخفين من داخل الحشا : من الراقدين المشتهين التغيبا
فقالت عروبٌ ذات عز غريرة :: نعم، واتخذن الشعر لهواً وملعبا
عجبت له أن زار في النوم : وتبسم عن عذب المقالة أنسبا
مضاجعي :: ولو زارني مستيقظاً كان أعجبا
فلما انقضى ما زخرفت : تنفست الوسطى، وقالت تطربا
وتضاحكت :: فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحبا
وما زارني في النوم إلا خياله : بلفظ لها قد كان أشهى وأعذبا
وأحسنت الصغرى، وقالت :: ضجيعي، ورياه من المسك أطيبا
مجيبة : لي الحكم لم أترك لذي اللب
بنفسي وأهلي من رأى كل ليلة :: معتبا
فلما تدبرت الذي قلن وانبرى : رأيت الذي قالت جميلاً وأصوبا
حكمت لصغراهن في الشعر أنني ::
:

قال الأصمعي: ثم دفعت الرقعة إلى الجارية، فلما صعدت إلى القصر، فإذا برقص وتصفيق ودنيا دانية وقيامة قائمة، فقلت: ما بقي لي إقامة، فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف، وإذا بالجارية تنادي وتقول: اجلس يا أصمعي.

فقلت: ومن أعلمك أنني الأصمعي؟ فقالت: يا شيخ إن خفي علينا اسمك فما خفي علينا نظمك.

فجلست، وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه الجارية الأولى وعلى يدها طبق من فاكهة وطبق من حلوى، فتفكهت وتحليت وشكرت صنعها، وأردت الانصراف، وإذا بالجارية تنادي وتقول: اجلس يا أصمعي، فرفعت بصري إليها فنظرت كفًّا أحمر في كم أصفر فخلته البدر يشرف من تحت الغمام، ورمت لي صرة فيها ثلاثمائة دينار، وقالت: هذا صار لي وهو مني لك هبة في نظير حكومتك.

فقال لي أمير المؤمنين: لأي شيء حكمت للصغرى ولم تحكم للكبرى ولا للوسطى؟

فقلت: يا أمير المؤمنين إن بيت الكبرى قالت:

عجبت له أن زار في النوم مضجعي

وهو محمول معلق على شرط قد يقع ولا يقع، وأما الوسطى، فمر بها طيف خيال في النوم فسلمت عليه، وبيت الصغرى ذكرت أنها ضاجعته مضاجعة حقيقية وشمت منه أنفاساً أطيب من المسك وفدته بنفسها وأهلها ولا يفدى بالنفس إلا من هو أعز من النفس.

فقال الخليفة: أحسنت يا أصمعي.

ثم دفع إلي ثلاثمائة دينار فأخذتها وانصرفت فكنت أقول لله درك من شعر أخذت في حكومتي منه ثلاثمائة دينار، وفي حكايته مثلها، والله أعلم[1].

إبراهيم الموصلي وإبليس:

وعن أبي إسماعيل إبراهيم الموصلي قال: استأذنت الرشيد أن يهب لي يوماً من الأيام للانفراد بجواري وإخواني، فأذن لي في يوم السبت، فأتيت منزلي وأخذت في إصلاح طعامي وشرابي وما احتجت إليه وأمرت البوابين بإغلاق الأبواب وأن لا يأذنوا لأحد بالدخول علي.

فبينما أنا في مجلسي والحريم قد حففن بي، وإذا بشيخ ذي هيبة وجمال وعليه جبتان قصيرتان وقميص ناعم وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بفضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق، فداخلني غيظ عظيم لدخوله علي وهممت بطرد البوابين فسلم علي أحسن سلام، فرددت عليه وأمرته بالجلوس، فجلس وأخذ يحدثني بأحاديث العرب وأشعارها حتى ذهب ما بي من الغضب وظننت أن غلماني تحروا مسرتي لإدخال مثله علي لأدبه وظرفه، فقلت: هل لك في الطعام؟ قال: لا حاجة لي فيه.

قلت: فالشراب؟ قال: ذلك إليك.

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 44.

فشربت رطلاً وسقيته مثله، ثم قال: يا أبا إسحاق، هل لك أن تغنينا شيئاً فنسمع من صنعتك ما قد فقت به العام والخاص.

فغاظني قوله، ثم سهلت الأمر على نفسي، فأخذت العود وضربت وغنيت، فقال: أحسنت يا إبراهيم، فازددت غيظاً فقلت: ما رضي بما فعله في دخوله بغير إذني واقتراحه علي حتى سماني باسمي ولم يجمل مخاطبتي.

ثم قال: هل تزيد نكافئك؟ فترنمت وأخذت العود وغنيت وتحفظت فيما غنيته، قمت به قياماً تامًّا لقوله: ونكافئك. فطرب وقال: أحسنت يا سيدي، ثم قال لي: أتأذن لي في الغناء؟ فقلت: شأنك، واستضعفت عقله في أن يغني بحضرتي بعد الذي سمعه مني. فأخذ العود وجسه فوالله خلت أن العود ينطق بلسان عربي واندفع يغني هذه الأبيات:

ولي كبدٌ مقروحةٌ من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها ... ومن يشتري ذا علة بصحيح
أنن من الشوق الذي في ... أنين غصيص بالشراب طريح
جوانحي

قال إبراهيم: فوالله لقد ظننت أن الأبواب والحيطان وكل ما في البيت تجيبه وتغني معه، وبقيت مبهوتاً لا أستطيع الكلام والحركة لما خالط قلبي، ثم اندفع يغني، فقال:

ألا يا حمامات اللوى عدن عودةً ... فإني إلى أصواتكن حزين
فعدن ولما عدن كدن يمتنني ... وكدت بأسراري لهن أبين
دعون بترداد الهدير كأنما ... شربن الحميا أو بهن جنون
فلم تر عيني مثلهن حمائماً ... بكين ولم تدمع لهن عيون

قال: ثم سكت قليلاً وغنى هذه الأبيات:

ألا يا صبا نجدٍ متى هجت من نجد ... فقد زادني مسراك وجداً على وجدي
أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على فنن من غصن بان ومن رند
بكيت كما يبكي الوليد صبابةً ... وأبديت من شكواي ما لم تكن تبدي
وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... تمل وأن البعد يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خيرٌ من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذي ود

ثم قال: يا إبراهيم هذا الغناء الماخوري خذه وانح نحوه في غنائك وعلمه جواريك.

فقلت: أعده علي؟ فقال: لست تحتاج إلى إعادة فقد أخذته وفرغت منه.

ثم غاب من بين يدي فارتعبت منه وقمت إلى السيف وجردته ثم غدوت نحو أبواب الحريم فوجدتها مغلقة، فقلت للجواري: أي شيء سمعتن؟ فقلن: سمعنا غناء أطيب شيء وأحسنه.

فخرجت متحيراً إلى باب الدار فوجدته مغلقاً فسألت البوابين عن الشيخ فقالوا: أي شيخ، فوالله ما دخل إليك اليوم أحد.

فرجعت أتأمل أمره، فإذا هو قد هتف بي من جوانب البيت، وقال: لا بأس عليك يا أبا إسحاق، فإنما هو أبو مرة قد كنت نديمك اليوم، فلا تفزع.

فركبت إلى الرشيد فأخبرته الخبر، فقال: أعد الأصوات التي أخذتها، فأخذت العود وضربت، فإذا هي راسخة في صدري، فطرب الرشيد عليها وجعل يشرب، ولم يكن له همة على الشراب، وقال: كأن الشيخ علم أنك قد أخذت الأصوات وفرغت منها فليته متعنا بنفسه يوماً واحداً كما متعك، ثم أمر لي بصلة فأخذتها وانصرفت، انتهى[1].

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 45.

الرشيد وإسماعيل بن صالح:

وقال الرشيد يوماً للفضل بن يحيى، وهو بالرقة: قد قدم إسماعيل بن صالح بن علي، وهو صديقك، وأريد أن أراه؟ فقال: إن أخاه عبد الملك في حبسك وقد نهاه أن يجيئك.

قال الرشيد: فإني أتعلل حتى يجيئني عائداً؟ فتعلل، فقال الفضل لإسماعيل: ألا تعود أمير المؤمنين؟ قال: بلى.

فجاءه عائداً فأجلسه، ثم دعا بالغداء، فأكل وأكل إسماعيل بين يديه، فقال له الرشيد: كأني قد نشطت برؤيتك إلى شرب قدح، فشرب وسقاه، ثم أمر فأخرج جوار يغنين وضربت ستارة وأمر بسقيه، فلما شرب أخذ الرشيد العود من يد جارية ووضعه في حجر إسماعيل وجعل في عنقه سبحة، وفيها عشرة حبات من در شراؤها بثلاثين ألف دينار، وقال: غن يا إسماعيل، وكفر عن يمينك بثمن هذه السبحة، فاندفع يغني شعر الوليد بن يزيد في غالية أخت عمر بن عبد العزيز، وكانت تحته، وهي التي ينسب إليها سوق الغالية، فقال:

فأقسم ما أدنيت كفي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلي

فسمع الرشيد أحسن غناء من أحسن صوت. فقال: الرمح يا غلام.

فجيء بالرمح، فعقد له لواء على إمارة مصر.

قال إسماعيل: فوليتها سنتين فأوسعتها عدلاً. وانصرفت بخمسمائة ألف دينار، وبلغ أخاه عبد الملك ولايته، فقال: غنى والله الخبيث لهم، ليس هو بصالح[1].

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 46.

أعرابي يزاحم الرشيد:

يروى أنه لما دخل هارون الرشيد إلى مكة، شرفها الله تعالى، وابتدأ بالطواف ومنع الخاص والعام من ذلك لينفرد بالطواف. فسبقه أعرابي، فشق ذلك على الرشيد فالتفت إلى حاجبه منكراً عليه، فقال الحاجب للأعرابي: تخل عن الطواف حتى يطوف أمير المؤمنين.

فقال الأعرابي: إن الله قد ساوى بين الإمام والرعية في هذا المقام، فقال عز وجل:{ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ} [الحج: ٢٥].

فلما سمع الرشيد من الأعرابي ذلك راعه أمره فأمر حاجبه بالكف عنه، ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود ليستلمه فسبقه الأعرابي فاستلمه، ثم أتى الرشيد إلى المقام للمصلي فسبقه الأعرابي فصلى فيه، فلما فرغ الرشيد من صلاته قال لحاجبه: ائتني بهذا الأعرابي، فأتاه الحاجب فقال: أجب أمير المؤمنين.

فقال: ما لي إليه من حاجة إن كان له حاجة فهو أحق بالقيام إلي والسعي.

فقام الرشيد حتى وقف بإزاء الأعرابي وسلم عليه، فرد عليه السلام، فقال له الرشيد: يا أخا العرب اجلس هنا بأمرك.

فقال الأعرابي: ليس البيت بيتي ولا الحرم حرمي وكلنا فيه سواء.

فإن شئت تجلس، وإن شئت تنصرف.

قال الراوي: فعظم ذلك على الرشيد وسمع ما لم يكن في ذهنه، وما ظن أنه يواجهه أحد بمثل هذا الكلام. فجلس الرشيد وقال: يا أعرابي، أريد أن أسألك عن فرضك، فإن أنت قمت به فأنت بغيره أقوم، وإن أنت عجزت عنه فأنت عن غيره أعجز.

فقال الأعرابي: سؤالك هذا سؤال تعلم أم سؤال تعنت؟ فتعجب الرشيد من سرعة جوابه وقال: بل سؤال تعلم.

فقال له الأعرابي: قم فاجلس مقام السائل من المسؤول.

قال: فقام الرشيد وجثا على ركبتيه بين يدي الأعرابي، فقال: قد جلست فاسأل عما بدا لك.

فقال له: أخبرني عما افترض الله عليك؟ فقال له: تسألني عن أي فرض عن فرض واحد، أم عن خمسة، أم عن سبعة عشر، أم عن أربعة وثلاثين، أم عن خمسة وثمانين، أم عن واحدة في طول العمر، أم عن واحدة من أربعين، أم عن خمسة من مائتين.

قال: فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه استهزاء به، ثم قال: له: سألتك عن فرضك فأتيتني بحساب الدهر؟ قال: يا هارون لولا أن الدين بالحساب لما أخذ الله الخلائق بالحساب يوم القيامة، فقال تعالى:{ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ} [الأنبياء: ٤٧].

قال: فظهر الغضب في وجه الرشيد واحمرت عيناه حين قال: يا هارون، ولم يقل له: يا أمير المؤمنين، وبلغ مبلغاً شديداً غير أن الله تعالى عصمه منه وحال بينه وبينه لما علم أنه هو الذي أنطق الأعرابي بذلك، فقال له الرشيد: يا أعرابي، إن فسرت ما قلت نجوت وإلا أمرت بضرب عنقك بين الصفا والمروة.

فقال له الحاجب: يا أمير المؤمنين اعف عنه وهبه لله تعالى ولهذا المقام الشريف؟ قال: فضحك الأعرابي من قولهما حتى استلقى على قفاه، فقال: مم تضحك؟ قال: عجباً منكما إذ لا أدري أيكما أجهل الذي يستوهب أجلاً قد حضر أم من يستعجل أجلاً لم يحضر؟

قال: هال الرشيد ما سمعه منه وهانت نفسه عليه، ثم قال: الأعرابي: أما سؤالك عما افترض الله علي، فقد افترض علي فرائض كثيرة، فقولي لك عن فرض واحد: فهو دين الإسلام، وأما قولي لك: عن خمسة فهي الصلوات؛ وأما قولي لك عن سبعة عشرة: فهي سبعة عشرة ركعة؛ وأما قولي لك عن أربعة وثلاثين: فهي السجدات؛ وما قولي لك: عن خمسة وثمانين: فهي التكبيرات؛ وأما قولي لك عن واحدة في طول العمر: فهي حجة الإسلام واحدة في طول العمر كله، وأما قولي لك واحدة في أربعين:

فهي زكاة الشياه، شاة من أربعين، وأما قولي لك: خمس من مائتين فهي زكاة الورق.

قال: فامتلأ الرشيد فرحاً وسروراً من تفسير هذه المسائل، ومن حسن كلام الأعرابي وعظم الأعرابي في عينه وتبدل بغضه محبة، ثم قال: الأعرابي: سألتني فأجبتك وأنا أريد أن أسألك فأجبني.

قال: قل.

فقال الأعرابي: ما تقول في رجل نظر إلى امرأة في وقت صلاة الفجر فكانت عليه محرمة، فلما كان وقت الظهر حلت له، فلما كان في وقت العصر حرمت عليه، فلما كان وقت المغرب حلت له، فلما كان وقت العشاء حرمت عليه، فلما كان وقت الصبح حلت له، فلما كان وقت الظهر حرمت عليه، فلما كان وقت العصر حلت له، فلما كان وقت المغرب حرمت عليه، فلما كان وقت العشاء حلت له.

فقال: والله يا أخا العرب لقد أوقعتني في بحر لا يخلصني منه غيرك.

فقال له: أنت خليفة ليس فوقك شيء ولا ينبغي أن تعجز عن مسألة فكيف عجزت عن مسألتي وأنا رجل بدوي لا قدرة لي؟ فقال الرشيد: قد عظم قدرك العلم ورفع ذكرك فأشتهي إكراماً لي، ولهذا المقام تفسير ذلك.

فقال: حبًّا وكرامة ولكن على شرط أن تجبر الكسير وترحم الفقير ولا تزدري الحقير.

فقال: حبًّا وكرامة، ثم قال: إن قولي لك عن رجل نظر إلى امرأة وقت صلاة الفجر فكانت عليه حراماً فهو رجل نظر إلى أمة غيره وقت الفجر فهي حرام عليه، فلما كان وقت الظهر اشتراها فحلت له، فلما كان وقت العصر أعتقها، فحرمت عليه، فلما كان وقت المغرب تزوجها فحلت له، فلما كان وقت العشاء طلقها فحرمت عليه، فلما كان وقت الفجر رجعها فحلت له، فلما كان وقت الظهر ظاهر منها فحرمت عليه، فلما كان وقت العصر أعتق عنها، فحلت له، فلما كان وقت المغرب ارتد عن الإسلام فحرمت عليه. فلما كان وقت العشاء تاب ورجع إلى الإسلام فحلت له.

قال: فاغتبط الرشيد وفرح به واشتد إعجابه، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، فلما حضرت قال: لا حاجة لي بها ردها إلى أصحابها.

فقال له: أريد أن أجري لك جراية تكفيك مدة حياتك؟ قال: الذي أجرى عليك يجري علي.

قال: فإن كان عليك دين قضيناه عنك؟ قال: لا، ولم يقبل منه شيئاً، ثم أنشد يقول:

::
:
::
هب الدنيا توافينا سنينا : فتكدر ساعة وتلذ حينا
فما أبغي لشيء ليس يبقى :: وأتركه غداً للوارثينا
كأني بالتراب علي يحثى : وبالإخوان حولي نادبينا
ويوم تزفر النيران فيه :: وتقسم جهرة للسامعينا
وعزة خالقي وجلال ربي : لأنتقمن منهم أجمعينا
وقد شاب الصغير بغير ذنبٍ :: فكيف يكون حال المجرمينا
:
::
:

فلما فرغ من إنشاده تأوه الرشيد وسأله عن أهله وبلاده، فأخبره أنه موسى الرضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكان يتزيا بزي أعرابي زهداً في الدنيا وتباعداً عنها، فقام إليه الرشيد وقبل ما بين عينيه، ثم قرأ:{ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې} [الأنعام: ١٢٤]، وانصرف رحمة الله عليهم أجمعين[1].

الحسين الخليع والجارية العاشقة:

قال السجستاني: أرق الرشيد ليلة، فوجه إلى الأصمعي وإلى حسين الخليع فأحضرهما وقال: عللاني وابدأ أنت يا حسين.

فقال حسين: نعم يا أمير المؤمنين؟ خرجت في بعض السنين منحدراً إلى البصرة ممتدحاً محمد بن سليمان الزينبي بقصيدتي، فقبلها وأمرني

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 47.

بالمقام، فخرجت ذات يوم إلى المبربد وجعلت المهالبة طريقي فأصابني حر شديد فدنوت من باب دار كبيرة لأستسقي، فإذا أنا بجارية كأنها قضيب ينثني، واسعة العينين، زجاء الحاجبين، مفتوحة الجبين، عليها قميص جلناري ورداء عدني قد غلب شدة بياض بدنها على حمرة قميصها، تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين وبطن كطي القباطي، وعكن كالقراطيس، لها جمة جعدة بالمسك محشوة، وهي يا أمير المؤمنين متقلدة خرزاً من الذهب والجوهر، يزهو بين نهديها وعلى صحن جبينها طرة كالسبج وحاجبان مقرونان وعينان نجلاوان وخدان أسيلان وأنف أقنى تحته ثغر كاللؤلؤ، وأسنان كالدر، وقد غلب عليها الطيب، وهي والهة حيرى ذاهبة في الدهليز ورائحة تخطر على أكباد محييها في مشيتها، وقد خالط أصوات نعلها خلاخلها، فهي كما قال الشاعر فيها:

كل جزء منم محاسنه ⁝ كائن من حسنها مثلا

فهبتها يا أمير المؤمنين، ثم دنوت منها لأسلم عليها، فإذا الدهليز والدار والشارع قد عبق بالمسك، فسلمت عليها فردت بلسان منكسر وقلب حزين حريق مسعر. فقلت لها: يا سيدتي، إني شيخ غريب أصابني عطش، أفتأمرين بشربة من ماء تؤجرين عليها؟ قالت: إليك عني يا شيخ، فإني مشغولة عن الماء وادخار الزاد.

قلت: لأي علة يا سيدتي؟ قالت: لأني عاشقة لمن لا ينصفني، وأريد من لا يريدني، ومع ذلك فإني ممتحنة برقباء فوق رقباء.

قلت: وهل يا سيدتي على بسيطة الأرض من تريدينه ولا يريدك؟ قالت: نعم، وذلك لفضل ما ركب فيه من الجمال والكمال والدلال.

قلت: وما وقوفك في هذا الدهليز؟ قالت: ههنا طريقه وهذا أوان اجتيازه.

فقلت لها: يا سيدتي، فهل اجتمعتما في وقت من الأوقات ووجد حديث في هذا القرب؟ فتنفست الصعداء وأرخت دموعها على خدها كطل سقط على ورد، ثم أنشدت تقول:

وكنا كغصني بانة فوق روضة : نشم جنى اللذات في عيشة رغد
فأفرد هذا الغصن من ذاك قطع :: فيا من رأى فرداً يحن إلى فرد

قلت: يا هذه، فما بلغ من عشقك لهذا الفتى؟ قالت: أرى الشمس على حائطهم أحسب أنها هو، وربما أراه بغتة فأبهت ويهرب الدم والروح من جسدي وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل.

فقلت لها: فاعذريني، فأنت على ما بك من الصبا وشغل البال بالهوى ونحول الجسم وضعف القوى أرى بك من اللون ورقة البشرة فكيف لو لم يمسك الهوى لكنت مفتنةً في أرض بصرة.

قالت: والله قبل محبتي هذا الغلام كنت تحفة الدلال والجمال والكمال، ولقد فتنت جميع ملوك البصرة حتى فتنني هذا الغلام.

قلت: يا هذه، فما الذي فرق بينكما؟ قالت: نوائب الدهر ولحديثي وحديثه شأن من الشؤون، وذلك أني كنت قعدت في ويم نيروز، ودعوت عدة من مستظرفات البصرة من النساء الجميلات وكانت فيهن الحوراء جارية شيرا، وكان شراؤها عليه من عمان بثمانية آلاف درهم، وكانت بي والعة، فلما دخلت رمت بنفسها علي تقطعني قرصاً وعضاً، ثم خلونا نتمرن القهوة إلى أن يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا وكانت تلاعبني وألاعبها، فتارة أنا فوقها، وتارة هي فوقي، فحملها السكر إلى أن ضربت يدها إلى تكتي فحلتها من غير زيبةٍ كانت بيننا، وأنزلت سراويل ملاعبة، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا حبيبي فرأى ذلك فاشمأز لذلك وصدف عني صدوف المهرة العربية إذا سمعت صلاصل لجامها، فولى خارجاً، فأنا يا شيخ منذ ثلاث سنين أسأل الاجتماع به فلا ينظر إلي بطرف ولا يكتب لي بحرف ولا يكلم لي رسولاً ولا يسمع مني قيلاً.

فقلت لها: يا هذه، من العرب هو أم من العجم؟ فقالت: ويحك هو من جملة ملوك البصرة.

فقلت لها: شيخ هو أم شاب؟ فنظرت إلي شزراً وقالت: إنك أحمق، هو مثل القمر ليلة البدر، أجرد أمرد له طرة كحلك الغراب لا يعيبه شيء غير انحرافه عني.

قلت لها: ما اسمه؟ قالت: ماذا تصنع به؟ أجتهد في لقائه فأتعرف الفضل بينكما.

قالت: على شرط أن تحمل إليه رقعة.

قلت: لا أكره ذلك.

فقالت: اسمه ضمرة بن المغيرة ويكنى بأبي السخاء، وقصره بالمربد.

ثم صاحت في الدار: يا جواري، الدواة والقرطاس، وشمرت عن ساعدين كأنهما طوقان من فضة، وكتبت بعد البسملة: سيدي ترك الدعاء في صدر رقعتي ينبئ عن تقصيري، ودعائي، إن دعوته، هجنة ورعونة، ولولا أن بلوغ المجهود يخرج من حد التقصير لكان لما تكلفته خادمتك من كتابة هذه الرقعة معنى مع يأسها منك لعلمها تركك الجواب.

سيدي، جد بنظرة وقت اجتيازك في الشارع إلى الدهليز تحيي بها نفساً ميتة، واخطط بخط يدك، بسطها الله بكل فضيلة، رقعة واجعلها عوضاً عن تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنت ذاكر لها.

سيدي، ألست لك محبة مدنفةٌ؟ فإن رجعت إلى الآيسة كنت لك شاكرة وبعد خادمة. والسلام.

فتناولت الكتاب وخرجت فأصبحت غدوة إلى باب محمد بن سليمان فوجدت مجلساً محتفلاً بالملوك ورأيت غلاماً زان المجلس وفاق على من فيه جمالاً وبهجة، قد رفعه الأمير فوقه، فسألت عنه فإذا هو ضمرة بن المغيرة، فقلت في نفسي: يا لحقيقة حل بالمسكينة ما حل بها. ثم قمت وقصدت المربد ووقفت على باب داره، فإذا هو قد ورد في موكب فوثبت إليه وبالغت في الدعاء له وناولته الرقعة، فلما قرأها وفهم معناها قال لي: يا شيخ! قد استبدلنا بها، فهل لك أن تنظر إلى البديل؟ قلت: نعم.

فصاح في الدار أخرجوا الربداء، فإذا أنا بجارية خابوطية الكمين، ناهدة الثديين تمشي مشية مستوحل من غير وحل، فناولها الرقعة، وقال: أجيبي عنها، فلما قرأتها اصفرت وعرفت وقالت: يا شيخ أستغفر الله مما جئت به.

فخرجت يا أمير المؤمنين وأنا أجر رجلي حتى أتيتها واستأذنت عليها فقالت: ما وراءك؟ فقلت: البؤس واليأس.

فقالت: ما عليك منه، فأين الله والقدر؟ ثم أمرت لي بخمسمائة دينار ثم جزت بعد أيام ببابها فوجدت غلماناً وفرساناً فدخلت فإذا أصحاب ضمرة يسألونها الرجوع إليه؟ فقالت: لا والله لا نظرت له وجهاً، فسجدت لله يا أمير المؤمنين، شماتةً بضمرة ونفرته من الجارية، فأوردت علي منه رقعة فإذا فيها، بعد التسمية، سيدتي، لولا إبقائي عليك، أدام الله حياتك، لوصفت شطراً من غدرك شطر غبني عليك، وسلكت ظلامتي فيك، إذ كنت الجانية، على نفسك ونفسي والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء والمؤثرة علينا غيرنا، فخالفت هواي، والله المستعان، على ما كان من سوء اختيارك والسلام.

وأوقفتني على ما حمله إليها من الهدايا والتحف العظيمة فإذا هو بمقدار ثلاثين ألف دينار ثم رأيتها بعد ذلك، وقد تزوج بها ضمرة[1].

جميل والفتى العذري وحبيبته:

وحكى مسرور الخادم قال: أرق الرشيد أرقاً شديداً ليلة من الليالي، فقال: يا مسرور من على الباب من الشعراء؟ فخرجت إلى الدهليز فوجدت جميل بن معمر العذري فقلت: أجب أمير المؤمنين فقال: سمعاً وطاعة. فدخلت ودخل معي إلى أن صار بين يدي هارون الرشيد فسلم بسلام الخلافة، فرد عليه وأمره بالجلوس، فقال له الرشيد: يا جميل، أعندك شيء من الأحاديث العجيبة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أيما أحب إليك، ما عاينته ورأيته أو ما سمعته ووعيته؟ فقال: بل حدثني عما عاينته ورأيته.

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، أقبل علي بكلك واصغ إلي بأذنك قال:

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 48 - 49.

فقعد الرشيد إلى مخدة من الديباج الأحمر المزركش بالذهب، محشوة بريش النعام، فجعلها تحت فخذه ثم مكن منها مرفقيه، وقال: هلم بحديثك.

فقال: اعلم يا أمير المؤمنين، أني كنت مفتوناً بفتاة محباً لها، وكنت آلفها إذ هي سؤلي وبغيتي من الدنيا، وإن أهلها رحلوا بها لقلة المرعى، فأقمت مدة لا أراها، ثم إن الشوق أقلقني وجذبني إليها، فراودتني نفسي بالمسير إليها فلما كانت ذات ليلة من الليالي، هزني الوجد إليها، فقمت وشددت رحلي على ناقتي واعتممت بعمتي ولبست أطماري وتقلدت بسيفي وتنكبت حجفتي، وركبت ناقتي وخرجت طالباً لها، وكنت أجد في السير، فسرت وكانت ليلة مظلمة مدلهمة، وأنا مع ذلك أكابد هبوط الأودية وصعود لجبال، أسمع زئير الأسد وعواء الذئاب، وأصوات الوحوش من كل جانب، وقد ذهل عقلي وطاش لبي، ولساني لا يفتر عن ذكر الله تعالى.

فبينما أنا أسير كذلك إذ غلبني النوم فأخذت بي الناقة على غير الطريق التي كنت فيها، وزاد علي النوم، وإذا أنا بشيء لطمني في رأسي فانتبهت فزعاً مرعوباً، وإذا بأشجار وأنهار وماء وأطيار على تلك الأغصان تترنم بلغاتها وألحانها، وشجار ذاك المرج مشتبكة بعضها ببعض، فنزلت عن ناقتي وأخذت زمامها بيدي، ولم أزل أتلطف بها إلى أن خرجت بها من تلك الأشجار إلى أرض فلاة، فأصلحت كورها، واستويت راكباً على ظهرها، ولا أدري إلى أين أذهب ولا إلى ما تسوقني الأقدار؟ فمددت نظري في تلك البرية، فلاحت لي نار في صدرها فوكزت ناقتي وسرت طالباً إلى أن وصلت إلى تلك النار، فقربت نفسي منها وتأملت وإذا بخباء مضروب ورمح مركوز، وراية قائمة وخيل واقفة، وإبل سائمة، فقلت في نفسي: يوشك أن يكون لهذا الخباء شأن عظيم، فإني لا أرى في هذه البرية سواه، ثم تقدمت خلف الخباء وقلت: السلام عليكم يا أهل الخباء ورحمة الله وبركاته.

فخرج إلي من الخباء غلام من أبناء تسعة عشر، كأنه البدر إذا أشرق، والشجاعة لائحة بين عينيه، فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أخا العرب، إني أظنك ضالاً عن الطريق؟ فقلت: الأمر كذلك، أرشدني يرحمك الله تعالى.

فقال: يا أخا العرب إن أرضنا هذه مسبعةٌ، وهذه الليلة مظلمة وحشة شديدة الظلمة والبرد ولا آمن عليك من الوحش أن يفترسك، فانزل عندي على الرحب والسعة، فإذا كان الغد أرشدتك إلى الطريق.

قال: فنزلت عن ناقتي وعقلتها بفاضل زمامها ونزعت ما كان علي من أطمار، وجلست ساعة، وإذا بالشاب قد عمد إلى شاة فذبحها وإلى نار فأضرمها وأججها ثم دخل الخباء وأخرج أزاراً ناعمة ولحماً مطيباً وأقبل يقطع من اللحم ويشوي على النار ويطعمني ويتنهد تارة، ويبكي تارة أخرى، ثم شهق شهقة عظيمة وبكى بكاء شديداً وأنشد يقول:

::
:
لم يبق إلا نفس خافت :: ومقلة إنسانها باهت
لم يبق في أعضائه مفصل : إلا وفيه سقم ثابت
فدمعه جار وأحشاؤه :: توقد، إلا أنه ساكت
تبكي له أعداؤه رحمة : يا ويح من يرثي له الشامت
::
:

قال جميل: فعند ذلك يا أمير المؤمنين علمت أن الغلام عاشق ولهان، ولا يعرف الهوى إلا من ذاق طعم الهوى، فقلت في نفسي: أنا في منزل الرجل وأتهجم عليه في السؤال؟ فردعت نفسي وأكلت من ذلك اللحم بحسب الكفاية، فلما فرغت من الأكل قام الشاب ودخل الخباء وأخرج طشتاً نظيفاً وإبريقاً حسناً ومنديلاً من الحرير أطرافه مزركشة بالذهب الأحمر وقمقماً مملوءاً من الماورد الممسك. فتعجبت من ظرفه ورقة حاشيته، وقلت في نفسي: ما أغرب الظرف في البادية. ثم غسلنا أيدينا وتحدثنا ساعة ثم إنه قام ودخل الخباء وقطع بيني وبينه بمقطع من الديباج الأحمر، ثم خرج وقال: ادخل يا وجه العرب وخذ مضجعك فقد لحقك في هذه الليلة تعب وفي سفرك هذا نصب مفرط.

قال جميل: فدخلت فإذا أنا بفراش من الديباج الأخضر، فعند ذلك نزعت ما كان علي من الثياب ونمت بليلة لم أنم عمري مثلها، فلم أزل كذلك، وأنا متفكر في أمر هذا الشاب إلى أن جن الليل ونامت العيون، فلم

أشعر إلا بحس خفي لم أسمع ألطف منه ولا أرق حاشية، فرفعت سجاف المضرب، ونظرت فإذا أنا بصبية لم أر أحسن منها وجهاً وهي إلى جانبه، وهما يبكيان ويتشاكيان ألم الهوى والصبابة والجوى وشدة اشتياقهما إلى التلاقي، فقلت: يا الله؛ العجب من هذا الشخص الثاني، وهذا بيت فرد فإني لم أر فيه غير هذا الفتى، وليس حوله أحد، ثم قلت في نفسي: لا شك أن هذه الجارية من بنات الجن تهوى هذا الغلام، وقد تفرد بها في هذا المكان وتفردت به، فحققتها فإذا هي إنسية عربية إذا رمقت تخجل الشمس المضيئة، وقد أضاء الخباء من نور وجهها، فلما تحققت أنها محبوبته غلبتني الغيرة على الحب، فأرخيت الستر وغطيت وجهي ونمت، فلما أصبحت لبست ثيابي، وتوضأت لصلاتي، وصليت ما كان علي من الفرض، ثم قلت له: يا أخا العرب، هل لك أن ترشدني إلى الطريق، فقد تفضلت علي.

فنظر إلي وقال: على رسلك يا وجه العرب، الضيافة ثلاثة أيام وما كنت بالذي يدعك إلى الثلاثة أيام.

قال جميل: فأقمت عنده ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع جلسنا للحديث فحادثته وسألته عن اسمه ونسبه فقال: أما نسبي فأنا من بني عذرة، وأنا فلان ابن فلان وعمي فلان، فإذا هو ابن عمي، يا أمير المؤمنين، وهو من أشرف بيت في بني عذرة، قال: فقلت: يا بن العم، ما حملك على ما أراه منك من الانفراد في هذه البرية، وكيف تركت عبيدك وإماءك وانفردت بنفسك في هذا المكان؟ فلما سمع يا أمير المؤمنين كلامي، ترغرغت عيناه بالدمع ثم قال: يا بن العم إنني كنت محبًّا لابنة عمي، مفتوناً بها هائماً بحبها مجنوناً عليها لا أطيق الفراق عنها، فزاد عشقي لها، فخطبتها من عمي، فأبى أن يزوجنيها وزوجها من رجل من بني عذرة ودخل بها وأخذها إلى المحلة التي هو فيها من العام الأول، فلما بعدت عني وحجبت عن النظر إليها حملتني لوعات الهوى وشدة الشوق والجوى على تركي أهلي ومفارقتي عشيرتي وخلاني وجميع أمتعتي، وانفردت بهذا البيت في هذه البرية وألفت وحدتي.

فقلت: وأين أبياتهم؟ قال: هم قريب في ذروة هذا الجبل، وفي كل ليلة عند نوم العيون وهدوء من الليل تنسل من الحي سرًّا بحيث لا يشعر بها أحد فأقضي منها بالحديث وطراً وتقضي هي كذلك، وها أنا مقيم كذلك على هذا الحال أتسلى بها ساعة من الليل ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، أو يأتيني الأمر على رغم الحاسدين، أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين.

قال جميل: فلما حدثني الغلام يا أمير المؤمنين، غمني أمره وصرت من ذلك في حيرة لما أصابني عليه من الغيرة، فقلت له: يا بن العم، هل لك أن أدلك على حيلة أشير بها عليك، وفيها إن شاء الله عين الصلاح وسبيل الرشد والنجاح، وبها يفرج الله عليك الذي تخشاه.

فقال لي: قل يا بن العم.

فقلت له: إذا كان الليل وجاءت الجارية فاطرحها على ناقتي، فإنها سريعة الرواح، واركب أنت جوادك، وأنا أركب بعض هذه النوق وأسير بكم الليلة جميعها. فما يصبح الصباح إلا وقد قطعت بكم براري وقفاراً وتكون قد بلغت مرادك وظفرت بمحبوبة قلبك، وأرض الله واسعة فضاؤها، وأنا والله مساعدك ما حييت بروحي ومالي وسيفي.

فلما سمع ذلك قال لي: يا بن العم، حتى أشاورها في ذلك، فإنها عاقلة لبيبة بصيرة بالأمور.

قال جميل: فلما جن الليل وحان وقت مجيئها وهو منتظر الوقت لمعلوم فأبطأت عن عادتها فرأيت الفتى، وقد خرج من باب الخباء وفتح فاه وجعل يتنسم هبوب الريح التي تهب من نحوها وأنشد يقول:

ريح الصبا تهدي إلي نسيماً : من بلدةٍ فيها الحبيب مقيم
يا ريح فيك من الحبيب علاقةٌ :: أفتعلمين متى يكون قدوم

ثم دخل الخباء وقعد ساعة زمانية، وهو يبكي، ثم قال لي: يا بن العم، إن لبنت عمي في هذه الليلة نبأ وقد حدث لها حادث وعاقها عني عائق، ثم قال لي: كن مكانك حتى آتيك بالخبر. ثم أخذ سيفه وحجفته ثم غاب عني ساعة من الليل ثم أقبل وعلى يديه شيء يحمله ثم صاح إلي فأسرعت إليه.

فقال: أتدري يا بن العم ما الخبر؟ فقلت: لا والله.

فقال: فجعت في ابنة عمي في هذه الليلة لأنها كانت توجهت إلينا كعادتها إذ عرض لها في طريقها أسد فافترسها ولم يبق منها إلا ما ترى.

ثم إنه طرح ما كان على يده. فإذا هو مشاش الجارية وما فضل من عظامها. ثم بكى بكاء شديداً ورمى الترس من يده وأخذ كساء على يده ثم قال لي: لا تبرح إلى أن آتيك إن شاء الله تعالى.: ثم سار فغاب عني ساعة ثم عاد وبيده رأس الأسد فطرحه عن يده ثم طلب ماء فأتيته به فغسل فم الأسد وجعل يقبله ويبكي ويئن وزاد حزنه عليها وأنشد يقول:

ألا أيها الليث المدل بنفسه ... هلكت لقد هيجت لي بعدها شجنًا
وصيرتني فرداً وقد كنت إلفها ... وصيرت بطن الأرض لي ولها وطنًا
أقول لدهر خانني بفراقها ... وغار عليها أن أكن لها حزنًا

ثم قال: يا بن العم، سألتك بالله وبحق القرابة والرحم التي بيني وبينك إلا حفظت وصيتي؟ إنك ستراني الساعة ميتاً بين يديك، فإذا كان كذلك، فغسلني وكفني أنا وهذا الفاضل من مشاش الجارية في هذا الثوب وادفنا في قبر واحد واكتب على قبرنا هذه الأبيات، وأنشد يقول:

كنا على ظهرها، والعيش في رغد ... والشمل مجتمع والدار والوطن
ففرق الدهر والتصريف ألفتنا ... وصار يجمعنا في بطنها الكفن

قال: ثم بكى بكاء شديداً. ثم دخل المضرب وغاب عني ساعة وخرج وجعل يتنهد ويصيح ثم شهق شهقة فارق الدنيا، فلما رأيت ذلك منه عظم علي وكبر عندي حتى كدت ألحق به من شدة حزني عليه، ثم تقدمت إليه وفعلت به ما أمرني من الغسل وكفنتهما جميعاً ودفنتهما في قبر واحد، وأقمت عند قبرهما ثلاث أيام ثم ارتحلت وأقمت سنين أتردد إلى زيارتهما.

وهذا ما كان من حديثهما، يا أمير المؤمنين قال: فلما سمع الرشيد كلامه استحسنه وخلع عليه وأجازه جائزة حسنة، والله أعلم[1].

الرشيد والرجل الأموي:

من غريب ما يحكى، ما حكاه القاضي أبو الحسن التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة: أن منارة وكان صاحب شرطة الرشيد قال: رفع إلى هارون الرشيد أن رجلاً بدمشق من بقايا بني أمية عظيم المال كثير الجاه، مطاعاً في البلد، له جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم، وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة، وأنه لا يؤمن منه، فعظم ذلك على الرشيد.

قال منارة: وكان وقوف الرشيد على هذا، وهو بالكوفة في بعض حججه، في سنة ست وثمانين ومائة، وقد عاد من الموسم، وقد بايع للأمين والمأمون والمعتصم أولاده، فدعاني، وهو خال، وقال: إني دعوتك لأمر يهمني، وقد منعني النوم، فانظر كيف يكون؟ ثم قص علي خبر الأموي. وقال: اخرج الساعة فقد أعددت لك الخيول وأزحت علتك في الزاد والنفقة والآلة، وتضم إليك مائة غلام واسلك البرية، وهذا كتابي إلى نائب دمشق، وهذه قيود فابدأ بالرجل، فإن سمع وأطاع فقده وجئني به، وإن عصى فتوكل عليه أنت ومن معك لئلا يهرب، وأنفذ الكتاب إلى أمير دمشق ليكون مساعداً لك، واقبضا عليه وجئني به، وأجلت لذهابك ستًّا ولإيابك ستًّا ويوماً لمقامك، وهذا محمل تجعله في شقة منه، إذا قيدته، وتقعد أنت في الشقة الأخرى، ولا تكل حفظه إلى غيرك، حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك. فإذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها من أهله وولده وحاشيته وغلمانه، وقدر نعمته والحال والمحل واحفظ ما يقوله الرجل حرفاً بحرف من ألفاظه منذ يقع طرفك عليه حتى تأتيني به، وإياك أن يشكل عليك شيء من أمره. انطلق.

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 51 - 59.

قال منارة: فودعته وانطلقت وخرجت فركبت الإبل وسرت أطوي المنازل أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفيس النفس قليلاً إلى أن وصلت إلى دمشق في أول الليلة السابعة، وأبواب البلد مغلقة فكرهت طروقها ليلاً فبت بظاهر البلد إلى أن فتح بابها من غد، فدخلت حتى أتيت باب الرجل، وعليها صف عظيم وحاشية كثيرة، فلم أستأذن ودخلت بغير إذن، فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض من معي عني. قال: هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم.

قال: فلما صرت في صحن الدار نزلت ودخلت مجلساً رأيت فيه قوماً جلوساً فظننت أن الرجل فيهم فقاموا ورحبوا بي فقلت: أفيكم فلان؟ قالوا: نحن أولاده وهو في الحمام.

فقلت: استعجلوه.

فمضى بعضهم يستعجله وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية فوجدتها ماجت بأهلها موجاً كبيراً فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال مكثه واستربت منه واشتد قلقي وخوفي من أن يتوارى إلى أن رأيت شخصاً بزي الحمام يمشي في صحن الدار وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان، وهم أولاده وغلمانه، فقلت: إنه الرجل، فجاء وجلس وسلم علي سلاماً خفيفاً وسألني عن أمير المؤمنين واستقامة أمر حضرته، فأخبرته بما وجب وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة فقال: تقدم يا منارة وكل معنا.

فقلت: ما لي إلى ذلك من سبيل.

فلم يعاودني فأكل هو ومن معه ثم غسل يديه ودعا بالطعام، فجاءوا إليه بمائدة حسنة لم أر مثلها إلا للخليفة، فقال: يا منارة ساعدنا على الأكل. لا يزيد على أن يدعوني باسمي كما يدعوني الخليفة، فامتنعت عليه، فما عاودني فأكل هو ومن معه، وكانوا تسعة من أولاده، فتأملت أكله في نفسه فوجدته يأكل أكل الملوك ووجدت ذلك الاضطراب الذي كان في داره قد سكن ووجدتهم لا يرفعون شيئاً من بين يديه قد وضع على المائدة لا تهيأ غيره حالاً أعظم وأحسن منه. وقد كان غلمانه أخذوا لما نزلت إلى الدار

مالي وغلماني وعدلوا بهم إلى دار أخرى فما أطاقوا ممانعتهم، وبقيت وحدي وليس بين يدي إلا خمس أو ست غلمان وقوف على رأسي فقلت في نفسي: هذا جبار عنيد. فإن امتنع من الشخوص لم أطق إشخاصه بنفسي ولا بمن معي ولا حفظ إلى أن يلحقني أمير البلد، وجزعت جزعاً شديداً ورابني منه استخفافه وتهاونه بأمري، يدعوني باسمي ولا يفكر في امتناعي من الأكل ولا يسأل عما جئت به ويأكل مطمئناً، وأنا مفكر في ذلك، فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا بالبخور فتبخر وقام إلى الصلاة وصلى الظهر، وأكثر من الدعاء والابتهال، ورأيت صلاته حسنة، فلما انتقل من المحراب أقبل علي وقال: ما أقدمك يا منارة؟ فأخرجت كتاب أمير المؤمنين ودفعته إليه، ففضه وقرأه، فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك أنه يريد أن يوقع بي فلما تكاملوا ابتدأ فحلف أيماناً غليظة فيها الطلاق والعتاق والحج والصدقة والوقف أن لا يجتمع اثنان في موضع واحد. وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم، ولا يظهروا إلى أن ينكشف لهم أمر يعتمدون عليه. وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين بالمضي إليه، ولست أقيم بعد نظري فيه ساعة واحدة، فاستوصوا بمن ورائي من الحريم خيراً وما لي حاجة أن يصحبني أحد منكم هات قيودك يا منارة.

فدعوت بها وكانت في سفط ومد يده فقيدته وأمرت غلماني بحمله حتى صار في المحمل وركبت في الشق الآخر، وسرت من وقتي ولم ألاق أمير البلد ولا غيره، وسرت بالرجل وليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق فابتدأ يحدثني بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن في الغوطة، فقال لي: أترى هذا؟ قلت: نعم.

قال: إنه لي، وقال: إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت. ثم انتهى إلى آخر، فقال مثل ذلك. ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى، فقال مثل ذلك! هذا لي، فاشتد غيظي منه، وقلت: ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك وأخرجك فريداً مقيداً مغلولاً ما تدري إلى ما تصير إليه أمرك ولا كيف يكون،وأنت فارغ القلب من هذا حتى تصف ضياعك وبساتينك بعد أن جئتك؛ وأنت لا

تفكر فيما جئت به، وأنت ساكن القلب قليل التفكر. لقد كنت عندي شيخاً فاضلاً.

فقال لي مجيباً: إنا لله وإنا إليه راجعون. أخطأت فراستي فيك. لقد ظننت أنك رجل كامل العقل وأنك ما حللت من الخلفاء هذا المحل إلا لما عرفوك، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام، والله المستعان. أما قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه، فإني على ثقة من الله عز وجل الذي بيده ناصية أمير المؤمنين، ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه نفعاً ولا ضرًّا إلا بإذن الله عز وجل، ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه، وبعد فإذا عرف أمير المؤمنين أمري وعرف سلامتي وصلاح ناصيتي سرحني مكرماً، فإن الحسدة والأعداء رموني عنده بما ليس في وتقولوا علي الأقاويل، فإما أن يستحل دمي أو يخرج من إيذائي وإزعاجي ويردني مكرماً، أو يقيمني ببلاده معظماً مبجلاً؟ وإن كان قد سبق في علم الله عز وجل أن هذا يبدو لي منه سوء وقد اقترب أجلي وكان سفك دمي على يده، فلو اجتهدت الملائكة والأنبياء وأهل الأرض والسماء على صرف ذلك عني ما استطاعوا، فلم أتعجل الفكرة فيما فرغ الله منه، وإني أحسن الظن بالله الذي خلق ورزق وأحيا وأمات، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى، وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا فإذن قد عرفت مبلغ فهمك، فإني لا أكلمك بكلمة واحدة حتى يفرق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى.

ثم أعرض عني فما سمعت منه لفظة غير القرآن والتسبيح أو طلب ماء أو حاجة حتى شارفنا الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر، والنجب قد استقبلتني قبل ستة فراسخ من الكوفة يتجسسون خبري، فحين رأوني رجعوا عني متقدمين بالخبر إلى أمير المؤمنين، فانتهيت إلى الباب في آخر النهار فحططت رحلي، ودخلت على الرشيد وقبلت الأرض بين يديه ووقفت، فقال: هات ما عندك يا منارة وإياك أن تغفل منه عن لفظة واحدة.

فسقت الحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور وما حدثني به نفسي من امتناعه، والغضب يظهر في وجه أمير المؤمنين ويتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأمور من الصلاة والتفاته إلي وسؤاله عن سبب قدومي ودفعي الكتاب إليه ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله وأصحابه، وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد وصرفه إياهم ومد رجليه، فقيدته فما زال وجه الرشيد يسفر، فلما انتهيت إلى ما خاطبني به عند توبيخي له لما ركبنا في المحمل، فقال: صدق والله ما هذا إلا رجل محسود على النعمة، مكذوب عليه، ولعمري، لقد أزعجناه وأذيناه وروعنا أهله فبادر بنزع قيوده وائتني به.

قال: فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول في وجه الرشيد فدنا الأموي وسلم بالخلافة ووقف فرد عليه الرشيد ردًّا جميلاً وأمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه الرشيد فسأله عن حاله، ثم قال له: بلغنا عنك فضل هيئة وأمور أحببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك، فاذكر حاجتك؟ فأجاب الأموي جواباً جميلاً وشكر ودعا، ثم قال: ليس لي عند أمير المؤمنين إلا حاجة واحدة.

فقال: مقضية، فما هي؟ قال: يا أمير المؤمنين، تردني إلى بلدي وأهلي وولدي.

قال: نفعل ذلك، ولكن سل ما تحتاج إليه من مصالح جاهك ومعاشك فإن مثلك لا يخرج إلا ويحتاج إلى شيء من هذا.

فقال: يا أمير المؤمنين، عمالك منصفون وقد استغنيت بعدلهم عن مسألتي فأموري مستقيمة وكذلك أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين.

فقال الرشيد: انصرف محفوظاً إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك.

فودعه الأموي، فلما ولى خارجاً قال الرشيد: يا منارة، احمله من وقتك وسر به راجعاً كما سيرته حتى إذا وصلت إلى مجلسه الذي أخذته منه فودعه وانصرف.

قال منارة: فما زلت معه حتى انتهى إلى محله، ففرح به أهله وأعطاني عطاء جزيلاً وانصرفت، والله أعلم، وهذه الحكاية على سبيل الاختصار[1].

الرشيد والخليفة الثاني الكاذب:

حكي أن الخليفة هارون الرشيد قلق في بعض الليالي قلقاً شديداً فاستدعى بوزيره جعفر البرمكي وقال له: يا وزيري إن صدري ضيق ومرادي الليلة التفرج في شوارع بغداد والنظر في مصالح العباد بشرط أن لا يعرفنا أحد من الناس ونتزيا بزي تجار الأكياس.

فقال له الوزير: السمع والطاعة.

فقاموا في الوقت والساعة وقلعوا ما عليهم من ثياب الملك والافتخار ولبسوا ثياب التجار: الخليفة والوزير جعفر ومسرور السياف الأكبر، وتمشوا من مكان إلى مكان حتى وصلوا إلى الدجلة فرأوا بالأمر المقدور شيخاً قاعداً في شختور، فتقدموا إليه وسلموا عليه، وقالوا: يا شيخ، نشتهي من فضلك وإحسانك أن تفرجنا الليلة في مركبك، وخذ هذين الدينارين أجرتك انتفع بهما.

فقال لهم الشيخ: ومن يقدر على الفرجة، والخليفة هارون الرشيد ينزل كل ليلة في حراقة صغيرة إلى الدجلة ومعه مناد ينادي: يا معشر الناس كافة من جيد ورديء شيخ وصبي خاص وعام عبد وغلام، كل من نزل في مركب بالليل وشق الدجلة ضربت عنقه أو يشنق على صاري مركبه، وكأنكم الساعة بالحراقة وهي مقبلة.

فقال له الخليفة هارون الرشيد وجعفر البرمكي: يا شيخ خذ هذين الدينارين وادخل بنا قبواً من هذه الأقبية إلى أن تروح الحراقة.

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 55، 56.

فقال لهم الشيخ: هاتوا الذهب والله المستعان.

فأخذ الذهب وعوم بهم قليلاً، وإذا بالحراقة قد أقبلت من كبد الدجلة وفيها الشموع والمشاعل فقال لهم الشيخ: أما قلت لكم! يا ستار لا تكشف الأستار؟

فدخل إلى قبو ووضع عليهم مئزراً أسود، وصاروا يتفرجون من تحت المئزر، وإذا بالحراقة قد أقبلت والشمع يوقد فيها، وإذا في مقدم الحراقة مشاعلي بيده مشعل من الذهب الأحمر يوقد فيه بالعود القاقلي وعلى المشاعلي قباء أطلس أحمر بطراز مزركش أصفر وعلى رأسه شاش موصلي وعلى كتفيه مخلاة من الحرير الأخضر ملأى من العود القاقلي. وهو يوقد به عوض الحطب، ومشاعلي آخر في مؤخر الحراقة مثله، ومائتا مملوك واقفون ميمنة ومسيرة، وكرسي منصوب من الذهب الأحمر وعليه شاب حسن جالس كالقمر وعليه خلعة سوداء بطرازين من الذهب الأصفر، وبين يديه إنسان كأنه الوزير جعفر. وعلى رأسه خادم واقف كأنه مسرور بسيف مشهر، وعشرون نديماً. فقال الخليفة: يا جعفر.

قال: لبيك، أمير المؤمنين.

قال: لعل أن يكون هذا أحد أولادي إما المأمون أو محمد الأمين.

فلما وصلت الحراقة إليهم وإذا بالمشاعلي ينادي: معاشر الناس كافة الخاص والعام، الجيد والرديء والعبد والغلام، جهاوات وغير جهاوات قد رسم خليفتنا هذا أن كل من تفرج في الدجلة أو فتح طاقته حل ماله وضربت رقبته ومن لا يصدق يجرب.

قال: فتأمل الخليفة هارون الرشيد في الشاب وهو جالس على كرسي من الذهب قد كمل بالحسن والجمال والبهاء والكمال فلما تأمله هارون الرشيد التفت إلى الوزير وقال: يا وزير.

قال له: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: والله ما أبقى شيئاً من شكل الخلافة، وهذا الذي بين يديه كأنه أنت يا جعفر لا محالة، والخادم الذي على رأسه كأنه مسرور، هذا، وهؤلاء الندماء كأنهم ندمائي، وقد حار عقلي في هذا الأمر.

فقال له الوزير: وأنا والله يا أمير المؤمنين كذلك.

ثم تقدمت الحراقة إلى أن غابت عن العين فعند ذلك خرج الشيخ بالشختور الذي فيه الجماعة من تحت القبوة. وقال: الحمد لله على السلامة، فإنه لم يصادفنا.

فقال له الخليفة: يا شيخ! وهذا الخليفة ينزل كل ليلة الدجلة؟ قال: نعم يا سيدي، له على هذه الحالة سنة كاملة.

فقال له الخليفة: يا شيخ! نشتهي من فضلك وإحسانك أن تقف لنا ليلة غد في هذه المكان، ونحن نعطيك خمسة دنانير، فإنا قوم غرباء وقصدنا التنزه، ونحن نازلون في الفندق.

فقال الشيخ: السمع والطاعة.

ثم إن الخليفة وجعفراً ومسروراً توجهوا من عند الشيخ المراكبي إلى القصر وقلعوا ما عليهم من لبس التجار ولبسوا ثياب الملك والافتخار، وجلس كل واحد في مرتبته، ودخلت الأمراء والحجاب والنواب. وانعقد المجلس بالناس، ولما انقضى النهار وتفرقت الأجناد قال الخليفة هارون الرشيد لوزيره: يا جعفر! انهض بنا للفرجة على الخليفة الثاني.

فضحك جعفر ومسرور، ولبسوا لبس التجار وخرجوا منشرحي الصدور، وكان خروجهم من باب السر، فلما وصلوا إلى الدجلة وجدوا الشيخ صاحب الشختور لهم في الانتظار فنزلوا عنده في المركب. فلما استقروا مع الشيخ المراكبي، وإذا بالخليفة الثاني في الحراقة، وقد أقبلت عليهم فتأملوها وإذا فيها مائتا مملوك غير المماليك الأول والمشاعلية تنادي على عادتهم، فقال الخليفة: يا وزير، هذا شيء لو سمعت به ما صدقت، ولكن رأيت هذا عياناً.

ثم إن الخليفة قال لصاحب الشختور: يا شيخ! هذه عشرة دنانير وسر بنا في مساواتهم، فإنهم في النور ونحن في الظلام ننظرهم ونتفرج عليهم. وهم لا ينظروننا.

فأخذ الشيخ العشرة دنانير وأطلق الشختور في مساواتهم وصار في ظلام الحراقة، ولم يزالوا سائرين في أثرهم إلى آخر البساتين، وإذا بزريبة بطول الحراقة التصقت عليها، وإذا بغلامين واقفين، ومعهما بغلة مسرجة ملجمة، فطلع الخليفة الثاني وركب البغلة وسار بين الندماء، وزعقت المشاعلية والجاويشية، واشتالت الغاشية، وطلع هارون الرشيد وجعفر ومسرور إلى البر وشقوا بين المماليك وساروا قدامهم، فلاحت من المشاعلية لتفاتة فرأوا ثلاثة أنفار لبسهم لبس التجار، وهم غرباً فأنكروهم غمزوا عليهم فمسكوهم وأحضروهم بين يدي الخليفة الثاني، فلما نظرهم قال: كيف وصلتم إلى هذا المكان وما الذي جاء بكم في مثل هذا الوقت؟ قالوا: يا مولانا! اليوم كان قدومنا، ونحن قوم غرباء تجار، وخرجنا نتمشى الليلة، وإذا بكم قد أقبلتم وجاء هؤلاء وقبضوا علينا وأوقفونا بين أيديكم، وهذا خبرنا.

فقال لهم الخليفة الثاني: طيبوا قلوبكم، فلا بأس عليكم لأنكم قوم غرباء، ولو كنتم من بغداد لضربت أعناقكم للمخالفة.

ثم التفت إلى وزيره وقال: خذ هؤلاء صحبتك ليكونوا ضيوفنا الليلة.

فقال: سمعاً وطاعة.

ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى قصر عظيم الشأن محكم البنيان ما حواه سلطان، قصر قام من التراب وتعلق بأكتاف السحاب، بابه من خشب الساج، مرصع بالذهب الوهاج، يدخل منه إلى إيوان بفسقية وشاذروان، وحصر عبدانية ومخدات إسكندرانية، وستر مسبول وفرش يذهل العقول، وعلى عتبة الباب مكتوب هذان البيتان:

::
قصر عليه تحية وسلام : نشرت عليه جمالها الأيام
فيه العجائب والغرائب نوعت :: فتحيرت في نعتها الأقلام
:

قال: فدخل الخليفة الثاني إلى القصر، والجماعة في خدمته، إلى أن جلس على كرسي من الذهب مرصع بالدر والجوهر، وعلى الكرسي بشخانة من الحرير الأخضر لا يرى مثلها إلا عند كسرى وقيصر،

مزركشة بالذهب الأحمر، معلقة في بكرة من الصندل، رباطاتها من الحرير الأصفر، هذا وقد جلس الندماء في مراتبهم، وصاحب سيف النقمة واقف بين يديه، فمدوا السماط وأكلوا ورفعوا الخوان، ولأيديهم غسلوا، وأحضرت آلة المدام، ووضعت الطاسات والأواني وصففت الأباريق والكاسات والقناني، ودار الدور إلى أن وصل إلى الخليفة هارون الرشيد، فامتنع من الشراب فقال الخليفة الثاني لجعفر: ما بال صاحبك لا يشرب.

فقال: يا مولاي له مدة ما شرب.

فقال الشاب: عندي مشروب غير هذا يصلح لصاحبك. علي بشراب التفاح! ففي الحال أحضر فقدم بين يدي هارون الرشيد وقال: كلما وصل إليك الدور فاشرب من هذا، ولا يزالون يشربون في انشراح وتعاطي أقداح إلى أن تمكن الشراب من رؤوسهم واستولى على عقولهم ونفوسهم فقال الرشيد لوزيره: والله يا وزير ما عندنا آنية مثل هذه الآنية، فيا ليت شعري من يكون هذا الشاب.

فبينما هما يتحدثان بلطافة إذ لاحت من الشاب التفاتة فوجد الوزير يسار الخليفة، فقال: المسارة عربدة.

فقال الوزير: ما ثم عربدة، إلا أن رفيقي هذا يقول: سافرت غالب البلاد، ونادمت الملوك وعاشرت الأجناد ما رأيت أحسن من هذا النظام ولا مثل آنية هذا المدام، إلا أن أهل بغداد يقولون: الشراب بلا سماع من جملة المجون.

فلما سمع الخليفة الثاني هذا الكلام تبسم وانشرح، وكان بيده قضيب، فضرب به على مدورة، وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيًّا من العاج مصفحاً بالذهب الوهاج، وخلفه جارية قد كملت بالحسن والجمال والبهاء والكمال، فنصب الخادم الكرسي وجلست عليه الجارية وهي كالشمس الضاحية، وبيدها عود من صنعة الهنود، وشدته وحنت إليه بعد أن ضربت أربعة وعشرين طريقة عليه، فأذهلت العقول وعادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول:

لسان الهوى من مقلتي لك ناطق ... يخبر عني أنني لك عاشق
ولي شاهد من طرف قلبي معذب ... وقلبي جريح من فراقك خافق
وكم أكتم الحب الذي قد أذابني ... وقلبي جريح والدمع سوابق
وما كنت أدري قبل حبك ما الهوى ... ولكن قضا الرحمن في الخلق سابق

قال: فلما سمع الخليفة الثاني هذا الشعر من الجارية صرخ صرخة عظيمة، وشق البذلة التي كانت عليه إلى الذيل، فأسبلت عليه البشخانة، وأتي ببذلة غيرها أحسن منها، فلبسها وجلس على عادته، فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم حامل كرسيًّا من الذهب، وخلفه جارية أحسن من الأولى، وجلست على الكرسي وبيدها عود يكمد الحسود، وأنشدت تقول:

كيف اصطباري! ونار العشق في كبدي ... والدمع من مقلتي صوفانه مدد
والله ما طاب لي عيش أسر به ... وكيف يفرح قلب حشوه كمد

قال: فصرخ الشاب صرخة عظيمة، وشق ما عليه إلى الذيل وأسبلت عليه البشخانة على العادة وأتي ببذلة غيرها أحسن منها فلبسها، واستوى جالساً، ودار المدام وانبسط الكلام، فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدور ففتح الباب وخرج منه خادم على العادة ومعه كرسي وخلفه جارية، فجلست على الكرسي، ومعها عود يذهل الأسود فغنت، وأنشدت تقول:

أقصروا هجركم وقولا جفاكم ... ففؤادي وحقكم ما سلاكم
وارحموا مدنفاً كئيباً حزيناً ... ذا غرام متيماً في هواكم
قد براه السقام من عظم وجد ... يتمنى من الإله رضاكم
يا بدور محكم في فؤادي ... كيف أختار في الأنام سواكم

قال: فصرخ الشاب وشق ما عليه من الثياب فأرخوا عليه البشخانة وأتوا ببذلة غيرها، وعاد إلى حالته مع ندمائه ودارت الأقداح وطاب الانشراح، فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة، ففتح باب وخرج منه خادم حامل كرسياً وخلفه جارية فجلست على الكرسي، وأخذت العود وغنت تقول:

::
:
::

هل ينقضي حال التهاجر والقلى : ويعود لي ما قد تقضى أولا
أيام كنا والديار تلمنا :: في طيب عيش والحواسد غفلا
غدر الزمان بنا وفرق شملنا : من بعد هاتيك المنازل والحلا
أتروم مني يا عذولي سلوةً :: وأرى فؤادي لا يطيع العذلا
فدع الملام وخلني بصبابتي : فالقلب من أنس المحبة ما خلا
يا سادة نقضوا العهود وبدلوا :: لا تحسبوا قلبي لبعدكم سلا

:
::
:

قال: فلما فرغت الجارية صرخ الشاب صرخةً عظيمة، وشق ما عليه من الثياب، ووقع إلى الأرض مغشيًّا عليه، وسقط منه القوى والحبل، فأرادوا أن يرخوا عليه البشخانة على العادة، فتعوقت حبالها بالإرادة، فلاحت من هارون الرشيد التفاتة فنظر على أجناب الشاب أثر مقارع، فقال الرشيد بعد النظر والتأكد لجعفر: إنه شاب مليح إلا أنه لص قبيح، وما عند أحد منه خبر. هل رأيت ما على جنبيه من الأثر.

وقد أسبلت البشخانة عليه على العادة وأتي ببذلة غيرها فلبسها وقد أفاق من غشيته فاستوى جالساً على العادة مع الندماء، فحانت منه التفاتة فوجد جعفراً والخليفة يتحدثان، فقال لهما: ما الخبر يا فتيان؟ فقال جعفر: يا مولاي خير، لا شك ولا خفاء، إن رفيقي هذا من التجار الكبار، وسافر إلى جميع الأمصار، وصحب الملوك والأخبار، قال: إن الذي حصل من مولانا الخليفة في هذه الليلة إسراف عظيم لم أر أحداً فعل هذا الفعل في هذه الأقاليم لأنه شق كل بذلة بخمسمائة دينار، وهذا شيء زائد في العيار.

فقال الشاب: يا هذا! المال مالي والقماش قماشي، وهذا من بعض إنعامي على الخدم والحواشي، فإن كل بذلة شققتها هي لواحد من الندماء الحضار، وقد رسمت لهم أن العوض على كل بذلة خمسمائة دينا.

فأنشد عند ذلك الوزير جعفر وقال:

بنت المكارم وسط كفك منزلاً : فجميع مالك للأنام مباح
وإذا المكارم أغلقت أبوابها :: يوماً، فأنت لقفلها مفتاح

قال: فلما سمع الشاب من الوزير جعفر ذلك، رسم له بألف دينار وبذلة، ثم دارت بينهم الأقداح وطاب لهم شراب الراح، فقال الرشيد: يا جعفر، اسأله عن الضرب الذي رأيناه على جنبيه حتى ننظر ما يقول في جوابه.

فقال الوزير: يا مولاي لا تعجل وترفق بنفسك فالصبر أجمل.

فقال: وحياة رأسي وتربة العباس إن لم تسأله أخمدت منك الأنفاس.

فعند ذلك التفت الشاب إلى الوزير وقال: مالك مع رفيقك وما الخبر؟ فقال: خير يا مولانا.

فقال: سألتك بالله إلا ما أخبرتني بخبره، ولا تكتم عني شيئاً من أمره.

فقال: يا مولاي! إنه أبصر على جنبيك أثر سياط، فتعجب من ذلك غاية العجب وقال: يا لله العجب! الخليفة يضرب؟ وقصده يعلم ما السبب؟ فلما سمع الشاب هذا الكلام تبسم وقال: اللهم فنعم، واعلموا أن حديثي عجيبٌ وأمري غريبٌ لو كتب بالإبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر، ثم تأوه وأن واشتكى وبكى وأنشد:

حديثي عجيب فاق كل العجائب :: وحق إلهٍ غامر بالمواهب
فإن شئتمو أن تسمعوا إلي : فيطرب هذا الجمع من كل جانب
فأنصتوا :: وإن كلامي صادق غير كاذب
وأصغوا إلى قولي، ففيه إشارة : وقاتلتي فاقت جميع الكواعب
لأني قتيل من غرام ولوعة :: ويقتلني منها قسيُّ الحواجب
لها مقلة كحلا وخد مورد : خليفة هذا الوقت ابن الأطايب
وقد حس قلبي أن فيكم إمامنا :: وفي الحق يدعى صاحباً وابن
وثانيكمو يدعى الوزير بجعفر : صاحب

وثـالثكم مسـرور سـيفاف نقمـةٍ :: فإن كان هذا القول حقاً بصـائب
فقد نلت ما أرجو على كل حالـةٍ : وجاء سرور القلب من كل جانب

قـال: فعنـد ذلـك حلـف لـه جعفـر أنهـم لـم يكونـوا المـذكورين، فضـحك الشاب وقال: الذي أعرفكم به أني ما أنا أمير المؤمنين، وإنما سميت نفسي بهـذا الاسـم لأبلـغ مـا أريـد مـن أبنـاء المدينـة، واسـمي علـي بـن محمـد الجوهري، وإن أبي كـان من الأعيـان، ومـات وخلـف لـي أمـوالاً لا تأكلها النيران من ذهب وفضة ولؤلؤ ومرجان وياقوت وجوهر وزمرد وبهرمان وحمامات وغيطان وبساتين وفنادق وطواحين وعبيد وجوار وغلمان، فلما كان في بعض الأيام وأنا جالس في حانوتي وحولي الحشم والخمد، وإذا أنا بجارية قد أقبلت على بغلة وفي خدمتها ثلاث جوار كأنهن الأقمار، ونزلت على دكاني وجلست وقالت: أنت علي بن محمد الجوهري.

فقلت لها: مملوكك وعبد رقك.

فقالت: هل عندك عقد جوهر يصلح لمثلي؟ فقلت: يا ستي الذي عندي يحضر بين يديك، فإن أعجبك شيء كان بسعد المملوك، وإن لم يعجبك شيء منه فبسوء حظي.

وكان عندي مائة عقد جوهر فعرضت عليها الجميع فلم يعجبها شيء منها، وقالت: أريد أحسن مما رأيت؛ وكان عندي عقد صغير شراؤه على والدي بمائة ألف دينار لم يوجد مثله عند أحد السلاطين الكبار، فقلت: يا سيدتي بقـي عنـدي عقد الفصـوص والجـواهر الـذي لـم يملكـه أحـد مـن الأصاغر والأكابر.

فقالت: أرني إياه.

فلما رأته قالت: هذا الذي طول عمري أتمناه. ثم قالت: بكم ثمنه في الأسعار؟ فقلت: شراؤه على والدي بمائة ألف دينار.

فقالت: ولك خمسة آلاف زائدة.

فقلت لها: يا سيدتي العقد وصاحبه في الرق بين يديك، ولا خلاف.

فقالت: لا بد من الفائدة ولك الجميلة الزائدة.

وقامت من وقتها عجلة وركبت البغلة بسرعة، وقالت: يا سيدي نور الدين، باسم الله فلتكن في صحبتنا لتأخذ الثمن، فإن نهارك اليوم بنا مثل اللبن.

فقمت وأقفلت الدكان وسرت معهن في أمان إلى أن وصلنا إلى الدار، فوجدتها داراً عليها السعادة لائحة والافتخار وعلى بابها مكتوب بالذهب واللازورد العجيب هذه الأبيات:

ألا يـــا دار لا يـــدخلك حـــزنٌ : ولا يغـــدر بصـــاحبك الزمـــان
فـــنعم الـــدار أنـــت لـــك ضـــيفٍ :: إذا مـــا ضـــاق بالضـــيف المكـــان

فنزلت الجارية، ودخلت الدار وأمرت بجلوسي إلى أن يأتي الصيرفي، فجلست على باب الدار ساعة لطيفة، وإذا بجارية خرجت إلي وقالت: يا سيدي ادخل إلى الدهليز فإن جلوسك على الباب قبيح.

فقمت إلى الدهليز وجلست على الدكة ساعة، وإذا بجارية خرجت إلي، وقالت: يا سيدي! تقول لك سيدتي ادخل واجلس على جانب الإيوان حتى تقبض مالك.

فقمت فدخلت وجلست حيث أمرتني، وإذا بكرسي من الذهب وعليه ستارة من الحرير الأحمر، وإذا بتلك الستارة قد رفعت فبان من تحتها تلك الجارية التي اشترت مني العقد، وقد أسفرت عن وجه كأنه دائرة القمر، والعقد في عنقها فدهش عقلي وحار ذهني ولبي من رؤية تلك الجارية وحسنها، فلما رأتني قامت من على الكرسي، وسعت نحوي، وقالت: يا نور الدين! هل رأيت جميلة مثلي؟ فقلت: يا سيدتي الحسن كله فيك، وهو من بعض معانيك.

فقالت: يا علي، اعلم أني أحبك وما صدقت أنك صرت عندي.

ثم إنها طوقتني وعانقتني، فقبلتها وقبلتني ثم جذبتني وعلى صدرها رمتني. فلما علمت مني أني أريد أن أهم بها قالت: يا علي، أتريد أن تجتمع بي في الحرام، والله لا كان من يفعل الآثام ويرضى بقبيح الكلام، فإني بكر عذراء ما دنا مني أحد، ولست مجهولةً في البلد، أتعلم من أنا؟

فقلت: لا والله، وحلفت لها يميناً.

فقالت: أنا الست دنيا بنت يحيى بن خالد البرمكي، وأخي جعفر.

فلما سمعت منها ذلك جمعت خاطري عنها، وقلت: يا سيدتي ما لي ذنب في التهجم عليك، أنت التي أطمعتني في إحسانك والوصول إلى جنابك.

فقالت: لا بأس عليك ولا بد من الإحسان إليك فإن أمري بيدي، والقاضي ولي عقدي، والقصد أن أكون لك وتكون لي.

ثم إنها دعت بالقاضي والشهود وبذلت المجهود، فلما حضروا قالت لهم: هذا نور الدين علي بن الجوهري قد طلب زواجي ودفع لي هذا العقد مهري، وأنا قد قبلت ورضيت.

ثم إن القاضي حمد الله تعالى وأثنى عليه وكتب الكتاب فدخلت عليها بعد أن أعطت للقاضي شيئاً ما له حساب، وأحضرت المدام وأحضرت الأقداح بأحسن نظام، فلما لعبت الخمرة في رؤوسنا أمرت جارية عوديةً أن تغني فأنشأت تقول:

قلبي وآمالي بباب رجاكمو ... لا أبتغي في الكون غير رضاكمو
يا جيرة جاروا علي ببعدهم ... حنوا علينا وارحموا مضناكمو
حاشاكمو، يا سادتي، أن تهجروا ... صبًّا معنى مغرماً بهواكمو
بالله جودوا وارحموا لمتيم ... لم يستمع فيكم حديث سواكمو
مرسى فؤادي فوق بحر رضاكمو ... فإذا شجاه حسنكم ناجاكمو

قال: فأطربتنا الجارية بحسن غنائها ولم تزل الجواري يغنين جارية بعد جارية وينشدن الأشعار إلى أن غنت عشر جوارٍ، فعند ذلك أخذت العود الست دنيا وأنشدت تقول:

قسماً بلين قوامك المياس :: إني لنار الهجر منك أقاسي
فارحم لصب في هواك متيم :: يا بدر تم أنت سيد الناس
أنعم بوصلك كي أبيت بليلةٍ :: أجلو جمالك في ضياء الكاس
ما بين ورد جمعت ألوانه :: مع نرجس أيضاً وحسن الآس

قال الشاب: ثم إني أخذت منها العود وضربت عليه وغنيت هذه الأبيات:

سبحان ربي جميع الحسن :: حتى بقيت أنا من بعض أسراك
أعطاك :: خذي الأمان لنا من سحر عيناك
يا من لها ناظر تسبي الأنام بهَ :: والورد جوري نبت وسط خداك
فالماء والنار في خديك قد جمعا :: فما أمرك في قلبي وأحلاك
أنت الغرام لقلبي والنعيم له

قال: فلما سمعت مني ما قلت فرحت فرحاً شديداً، ثم إنها صرفت الجواري وقمنا إلى أحسن مكان قد فرش لنا فيه من سائر الألوان، ونزعت ما عليها من الثياب وخلوت بها خلوة الأحباب، فوجدتها بنتاً بكراً بختم ربها، ففرحت بي وفرحت بها فرحاً لم أجد في عمري ليلة أطيب منها، وفيها أنشدت أقول:

يا ليل! دم لي لا أريد صباحاً :: يكفي بوجه معانقي مصباحا
طوقته طوق الحمام بساعدي :: وجعلت كفي للمنام مباحا
هذا هو الفوز العظيم فخلنا :: متعانقين، فلا نريد براحا

فأقمت عندها شهراً كاملاً، وقد نسيتُ الدكان والأهل والأوطان إلى ذات يوم من الأيام قالت: يا نور الدين قد عزمت اليوم على المسير إلى الحمام، وأنت اقعد على هذا السرير إلى أن أرجع إليك.

فقلت: سمعاً وطاعةً.

وحلفتني ألا أنتقل من موضعي، فأخذت جواريها وذهبت إلى الحمام، فوالله يا إخواني ما لحقت أن تخرج من رأس الزقاق، إلا والباب قد فتح ودخلت منه عجوز وأي عجوز، وقالت: يا نور الدين الست زبيدة تدعوك، فقد سمعت بشبابك وطيب غنائك.

فقلت: والله علي يمين أنني ما أقوم من مقامي حتى تأتي الست دنيا.

فقالت العجوز: يا نور الدين لا تخل الست زبيدة تصير عدوتك، فقم كلمها وارجع.

فقمت من وقتي إليها والعجوز أمامي إلى أن أوصلتني إلى الست زبيدة، فلما وصلت إليها، قالت: يا نور الدين أنت معشوق الست دنيا؟ فقلت: مملوكك وعبد رقك.

فقالت: صدق الذي وصفك بالحسن والجمال، فإنك فوق الوصف والمقال، ولكن غنِّ لي شيئاً حتى أسمعك؟ فقلت: السمع والطاعة، فأتتني بعود فغنيت عليه وأنشدت أقول:

قلب المحب مع الأحباب متعوب ... وجسمه بيد الأسقام منهوب
ما في الركائب من زمت حمولهم ... إلا وكان له في الظعن محبوب
أستودع الله لي في حبكم قمراً ... يهواه قلبي وعن عيني محجوب
يرضى ويغضب، ما أحلى تدلله ... وكل ما يفعل المحبوب محبوب

فقالت لي: حفظ الله بدنك وطيب أنفاسك، فلقد كملت في الحسن والظرف والمعنى، فقم إلى مكانك قبل أن تجيء إليه الست دنيا فلا تجدك فتغضب عليك.

فقبلت الأرض وخرجت العجوز أمامي إلى أن أوصلتني إلى الباب الذي خرجت منه، فدخلت وجئت إلى السرير لأجلس فوجدتها جاءت من الحمام ونامت على السرير، فقعدت عند رجليها وصرت أكبسها، ففتحت عينيها فرأتني فجمعت رجليها ورفستني فرمتني من على السرير وقالت: يا نور الدين! خنت اليمين وكذبت. وذهبت إلى الست زبيدة؟ ووالله لولا

خوفي من الهتيكة والفضيحة لخربت قصرها على رأسها. ثم قالت لعبدها: يا صواب، قم اضرب رقبة هذا النذل الكذاب، فلا حاجة لنا به.

فتقدم ذلك الخادم إلي وشرط ذيلي وعصب عيني، وأراد أن يضرب رقبتي فقامت إليها الجواري الكبار والصغار، وقلن لها: يا ستاه، ما هو بأول من أخطأ ما عرف خلقك، وأنت ما تبغضينه، وما فعل ذنباً يوجب أن تقتليه.

فقالت: والله لا بد أن أؤثر فيه أثراً. ثم أمرت بضربي فضربت على أضلاعي الضرب الذي رأيتموه، وأمرت بإخراجي. فأخرجوني وأبعدوني عن القصر، ورموني ورجعوا وتركوني، فلمت نفسي: فمشيت قليلاً قليلاً إلى أن وصلت إلى منزلي، وأحضرت جراحاً وأريته الضرب فلاطفني وسعى في مصالحي. فلما صح جسمي دخلت الحمام وزالت عني الأوجاع والأسقام. وجئت إلى الدكان وأخذت جميع ما فيه وبعته وجمعت ثمنه واشتريت أربعمائة مملوك ما جمعهم أحد من الملوك يركب معي في كل يوم مائتان، وعملت هذا المركب الحراقة بألف ومائتين من الذهب العين، وسميت نفسي بالخليفة، ورتبت من معي من الخدام كل واحد في وظيفة وناديت: كل من تفرج في الدجلة ضربت عنقه بلا مهلة. ولي على هذه الحالة سنة كاملة ولم أسمع لها بخبر ولا وقفت لها على أثر، ثم إنه بكى وأن واشتكى وأنشد يقول:

::
:
والله ما كنت طول الدهر ناسيها :: ولا دنوت إلى من ليس يدنيها
كأنها البدر في تكوين خلقتها : سبحان خالقها سبحان باريها
صدت ولا ذنب لي إلا محبتها :: فكيف حال الذي قد بات نابيها
وصيرتني حزيناً ساهياً دنفاً : والقلب قد حار مني في معانيها
::
:

قال: فلما سمع هارون الرشيد كلام الشاب وما أبداه من الخطاب تعجب غاية العجب. وقال: سبحان من جعل لكل شيء سبباً.

ثم إنهم طلبوا من الشاب الانصراف وأضمر الرشيد للشاب الإنصاف وأن يتحفه غاية الإتحاف، فانصرفوا من عنده سائرين وإلى قصر الخلافة طالبين، ولما استقر بهم في منزلهم الجلوس غيروا ما كان عليهم من الملبوس ولبسوا أثواب الموكب والملك والزينة، وكذلك مسرور سياف النقمة والعطب، فقال الخليفة لجعفر المهيب: يا وزير! علي بالشاب.

فخرج إليه في الحشم والخدم وسار إلى منزل الشاب فخرج إليه وسلم عليه فقال له الوزير جعفر: أجب أمير المؤمنين.

فقال: سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين وحامي حوزة الدين.

فسار معه إلى القصر وهو من الترسيم عليه في حصر، فلما دخل إلى الخليفة ورفع الوزير الستر عن السدة الشريفة ورأى الشاب الخليفة عرفه، فقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز وأثنى عليه وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين وحامي حوزة الدين وقامع المفسدين وإمام المتقين هناك الله بما أعطاك وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعداك وأنشد يقول:

لا زال بابك كعبة مقصودةً : وترابها فوق الجباه رسوم
حتى ينادى في البلاد بأسرها :: هذا المقام وأنت إبراهيم

فعند ذلك تبسم الخليفة في وجهه، ورد عليه السلام وأظهر له الإحسان والإكرام وقربه إليه، وأجلسه بين يديه وقال له: يا نور الدين أريد أن تحدثني بحديثك الليلة يا مسكين، فإنه من أعجب الأمور.

فقال الشاب: العفو يا أمير المؤمنين، أعطني منديل الأمان ليهدأ روعي ويطمئن قلبي.

فقال الخليفة: لك الأمان.

فشرع الشاب يتحدث بالذي جرى له من أوله إلى آخره، فعلم الخليفة من غير إطالة أن الصبي عاشق لا محالة، فقال الخليفة: أتحب أن أردها إليك يا مسكين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ثم أنشد يقول:

إن رمت إحساناً فهذا وقته :: أو رمت معروفاً فهذا حينه

فعند ذلك التفت الرشيد إلى الوزير وقال له: أحضر أختك الست دنيا بنت الوزير يحيى.

فقال له: السمع والطاعة.

فأحضرها في الوقت فلما مثلت بين يديه قال لها: أتعرفين هذا من؟ فقالت: أين للنساء معرفة بالرجال؟

فتبسم وقال: يا دنيا قد عرفنا الحال وسمعنا الحكاية من أولها إلى آخرها وفهمنا باطنها وظاهرها، والأمر لا يخفى وإن كان مستوراً.

فقالت: كان ذلك في الكتاب مسطوراً، وأنا أستغفر الله مما جرى مني، وأسأل من فيض الفضل العفو عني.

فضحك الخليفة وأحضر القاضي والشهود وعقد له ثانياً عليها. وحصل له سعد السعود، وأكمد العدو والحسود وجعله نديمه وزاد تكريمه، وعاش بقية عمره في أهنإ عيش ونعمةٍ، يجالس الخليفة في الليل والنهار، تؤانسه الست دنيا ذات الفخار[1].

الرشيد وجارية جعفر:

ويحكى أن جعفراً البرمكي نادم الرشيد ليلة، فقال: يا جعفر بلغني أنك اشتريت الجارية الفلانية، ولي مدة أطلبها، فإنها بديعة الجمال، ولي شوق زائد إليها فبعنيها.

قال: ليس علي فيها بيع.

قال: هبنيها.

قال: ولا أهبها.

فقال الرشيد: زبيدة طالق مني ثلاثاً إن لم تبعنيها أو تهبنيها.

وقال جعفر: زوجتي طالق مني ثلاثاً إن بعتها أو وهبتها.

ثم أفاقا من نشوتهما وعلما أنهما وقعا في أمر عظيم وعجزا عن تدبير الحيلة فقال الرشيد: هذه واقعة ليس لها غير أبي يوسف، فاطلبوه، فكان قد انتصف الليل. فلما طلب قام فزعاً وقال: ما طلبت في هذا الوقت إلا لأمر

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 57 - 63.

حدث في الإسلام.

ثم خرج مسرعاً وركب بغلته وقال لغلامه: اصحب معك المخلاة، واجعل فيها بعض شعير، فإذا دخلنا دار الخلافة ودخلت فضع بين يدي الدابة شيئاً منه تشتغل به إلى حين خروجي، فإنها لم تستوف علفها في هذه الليلة.

فقال: سمعاً وطاعةً.

فلما دخل على الرشيد قام له وأجلسه على سريره بجانبه وكان لا يجلس معه غيره، وقال له: ما طلبناك إلا لأمر مهم، وهو كذا وكذا، وقد عجزنا عن تدبير الحيلة.

فقال: يا أمير المؤمنين، هذا من أسهل ما يكون. يا جعفر! بع أمير المؤمنين نصفها وهبه نصفها تبرآ من يمينكما.

فسر بذلك أمير المؤمنين وفعلا، فقال الرشيد: أحضر الجارية في هذا الوقت فإني شديد الشوق إليها.

فأحضرت، فقال للقاضي أبي يوسف: أريد وطأها في هذا الوقت، ولا أطيق الصبر إلى مضي مدة الاستبراء، انظر لي الحيلة في ذلك؟ فقال أبو يوسف: ائتوني بمملوك من مماليك أمير المؤمنين الذين لم يجر عليهم العتق.

فأحضر مملوك، فقال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين، ائذن لي أن أزوجها منه، ثم يطلقها قبل الدخول فيحل وطؤها في الحال من غير استبراء.

فأعجب الرشيد ذلك أكثر من الأول، فقال: أذنت لك.

فأوجب القاضي النكاح، ثم قبله المملوك، فقال له القاضي طلقها.

فقال له: هذه صارت لي زوجة وأنا لا أطلقها.

فردد عليه القول فأبى وضاق صدر الخليفة لذلك، وقال: قد اشتد الأمر أعظم مما كان.

فقال القاضي أبو يوسف: يا أمير المؤمنين رغبه بالمال.

فقال: طلقها ولك مائة دينار.

قال: لا أفعل.

قال: مائتا دينار.

قال: لا أفعل.

إلى أن عرضوا عليه ألف دينار وهو يمتنع، وقال القاضي: الطلاق بيدي أم بيد أمير المؤمنين أم بيدك؟ قال: بل بيدك أنت.

قال: والله لا أفعل أبداً.

فاشتد غضب أمير المؤمنين، فقال القاضي: يا أمير المؤمنين لا تجزع فإن الأمر هين أعتق الجارية، ثم ملك هذا العبد للجارية؟ قال: أعتقتها وملكته لها.

فقال لها القاضي: قولي: قبلت؟ فقالت: قبلت.

فقال القاضي: حكمت بالتفريق بينكما لأنه دخل في ملكها فانفسخ النكاح.

فقام أمير المؤمنين على قدميه، وقال: مثلك من يكون قاضياً في زماني. واستدعى بأطباق الذهب فأفرغت بين يديه، وقال للقاضي: هل معك شيء توعيه؟ فتذكر مخلاة البغلة. فاستدعى بها، فملئت له ذهباً، فأخذها وانصرف. فلما أصبح قال لخلانه: انظروا إلى من علم العلم فليتعلمه كذلك، فإني أعطيت هذا المال العظيم في مسألتين أو ثلاث.

فانظر أيها المتأدب إلى لطف هذه الواقعة فإنها اشتملت على محاسن منها إدلال الوزير على قلب أمير المؤمنين وحلم الخليفة، وزيادة علم القاضي فرحم الله أرواحهم أجمعين.

ولكن مسألة الاستبراء لم تتخرج إلا على مذهب أبي حنيفة فخرجها أبو يوسف على قواعد مذهبه لأنه حنفي المذهب. والله أعلم[1].

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 63.

الست بدور والأمير عمرو:

يحكى أن الرشيد أرق ذات ليلة أرقاً شديداً، فاستدعى جعفراً وقال: أريد منك أن تزيل ما بقلبي من الضجر.

فقال الوزير: يا أمير المؤمنين، كيف يكون على قلبك ضجر، وقد خلق الله أشياء كثيرة، تزيل الهم عن المهموم، والغم عن المغموم، وأنت قادر عليها؟ فقال الرشيد: وما هي يا جعفر؟ فقال له: قم بنا الآن، حتى نطلع فوق سطح هذا القصر ونتفرج على النجوم واشتباكها وارتفاعها والقمر وحسن طلعته كأنه وجه من تحب كما قيل:

فكأنما حسن السماء ولونها : قد رقمت فيها أفانين الصور
كأن هذا البدر حين بدا لنا :: في بعض ليل من غلاف قد ظهر

فقال الرشيد: يا جعفر، ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، افتح شباك القصر الذي يطلع على البستان وتفرج على حسن تلك الأشجار واسمع صوت تغريد الأطيار وانظر إلى هدير الأنهار وشم روائح تلك الأزهار واسمع الناعورة التي كأنها أنين محب فارق محبوبه، وهي كما قال فيها بعض واصفيها:

وناعورة حنت وغنت وقد غدت : تعبر عن حال المشوق وتعرب
وترقص عطف البان تيهاً لأنها :: تغني له طول الزمان ويشرب

وإما أن تنام يا أمير المؤمنين، إلى أن يدركنا الصباح.

فقال: يا جعفر، ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين، افتح الشباك الذي يطلع على الدجلة حتى تتفرج على تلك المراكب والملاحين، فهذا يصفق، وهذا ينشد موالياً، وهذا يقول دوبيت، وهذا يقول كيت وكيت.

فقال الرشيد: ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك.

فقال جعفر: قم يا أمير المؤمنين، حتى ننزل إلى الإصطبل الخاص وننظر إلى الخيل العربيات وتتفرج على حسن ألوانها، ما بين أدهم كالليل إذا أظلم، وأشقر، وأشهب، وكميت أحمر، وأبيض، وأخضر، وأبلق، وأصفر، وألوان تحير العقول.

فقال الرشيد: ما تلفتت نفسي إلى شي من ذلك.

فقال جعفر: يا أمير المؤمنين، عندك في قصرك ثلاثمائة جارية، ما بين جنكية، إلى عودية، إلى دفية، إلى قانونية، إلى زامرة، إلى مغنية، إلى راقصة، إلى سنطيرية، أحضر الجميع، وأحضر العقار المروق، فعل أن يزول ما بقلبك من الضجر.

فقال: ما تهم نفسي إلى شيء من ذلك.

فقال جعفر: يا أمير المؤمنين ما بقي إلا ضرب عنق مملوكك جعفر، فإني قد عجزت عن إزالة هم مولانا.

فقال: يا جعفر، أما سمعت قول ابن عمي رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: من فم مولانا أسمع.

فقال الرشيد: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **فرح أمتي في ثلاث: أن يرى بعينه شيئاً ما رآه، أو يسمع شيئاً ما سمعه، أو يطأ مكاناً ما وطئه** -، فيتفق يا جعفر أن يكون في بغداد مكان ما وطئناه، أو شيء ما سمعناه، أو موضع ما رأيناه.

فقال جعفر: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أطلع إلى مجلس النوبة وأنظر أحداً من المسافرين أحضره بين يدي أمير المؤمنين، لعله أن يحدثك بحديث ما سمعته؟ فقال الرشيد: قم وافعل.

فقام جعفر وطلع وعاد بسرعة بالشيخ أبي الحسن الخليع الدمشقي المسامر. قال: فلما رأى أمير المؤمنين سلم فأحسن وترجم فأبلغ، ثم قال: يا أمير المؤمنين وحامي حوزة الدين وابن عم سيد المرسلين وخاتم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين، أطال الله بقاك وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعداك لا خمدت لك نار ولا أغيظ لك جار، ثم أنشد يقول:

دام لـــك العـــز والبقـــاء ... مـا اختلـف الصـبح والمسـاء
ودمـــت مـــا دامـــت الليـــالي ... بمـــدة مـــا لهـــا انقضـــاء
النـــاس نـــاس بكـــل أرض ... وأنـــت مـــن فـــوقهم ســـماء

قال: فرد الشيخ السلام وقال له: اجلس يا أبا الحسن، وحدثنا بحديث عجيب مليح لم نسمعه قط؟ فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، أحدثك بشيء سمعته بأذني أو بشيء رأيته بعيني؟ قال الرشيد: يا شيخ أبا الحسن الذي تراه العين أحسن من الذي تسمعه الأذن.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، أفرغ لي عن ثلاثة أشياء منك؟ فقال: ما الثلاثة؟ فقال: ذهنك وسمعك وقلبك.

فقال الرشيد: هات يا أبا الحسن.

فقال: يا أمير المؤمنين لي عادة أني أسافر في كل سنة إلى البصرة للأمير محمد بن سليمان الزينبي، وأقعد عنده أحدثه الأسمار، وأورد له الأخبار، وأنشد له الأشعار، ولي عليه رسم ألف دينار آخذها وأعود إلى بغداد. فاتفق لي من سنة من السنين أني سافرت إلى البصرة على عادتي ودخلت على الأمير محمد بن سليمان وجلست عنده اليوم الأول والثاني والثالث، فركب إلى الصيد وتركني في منزله وأوصى أرباب دولته بخدمتي وإكرامي إلى أن يعود، وأوصى الطباخ الذي له أن لا يطعمني إلا شيئاً تشتهيه نفسي، فاشتهيت السمك فقلت للطباخ: فعمل لي من السمك عدة ألوان فأكلت وطاب لي الأكل حتى ثقل على فؤادي، فقلت: ما يصرف عني هذا إلا المشي، ولي عدة أسفار إلى البصرة ما أعرف فيها مكاناً، وأريد اليوم أن أجعلها حجة وفرجة. ثم إني نزلت أتمشى في شوارع البصرة فعطشت عطشاً شديداً وناهيك بعطش السمك، فقلت في نفسي: إن تناولت شربة من السقاء لا تطيب نفسي لأنه يشرب منه أصحاب الأمراض، وكبر على نفسي أن أحملها إلى شاطئ الدجلة، وقلت: ما لي إلا أن أقصد بعض دور المحتشمين وأطلب منها شربة من ماء، فأتيت إلى

درب وفي ذلك الدرب خمسة دور داران مقابلتان لدارين ودار صدرانية قد قامت من التراب وتعلقت بأذيال السحاب، ولها باب مقنطر مزخرف بمصاطب طولانية، مفروش عليها حصر عبدانية، والباب ساج مصفح بصفائح الذهب الوهاج ومسامير الفضة وستر من الحرير الأصفر المدثر مكتوب عليه هذه الأبيات:

ألا يـــا دارُ لا يـــدخلك حـــزنٌ : ولا يغـــدر بصـــاحبك الزمـــانِ
فـنعم الـدار أنـت لكـل ضـيفٍ :: إذا مـا ضـاق بالضـيف المكـانُ

قال: فقلت في نفسي، من هذه الدار أشرب الماء، فأتيت إلى الباب فسمعت صوتاً ضعيفاً من فؤاد نحيف، وقائلاً يقول:

بـالله ربكمـا عوجـا علـى سكني :: وعاتبـاه لعـل العتـب يعطفـه
وعرضـا بـي وقـولا فـي حديثكما : مـا بـال عبـدك بـالهجران تتلفـه
فـإن تبسـم قـولا فـي ملاطفـةٍ :: مـا ضر لـو بوصالٍ منك تسعفه
وإن بدا لكمـا فـي وجهـه غضبٌ : فغالطـاه وقـولا لـيس نعرفـه

قال: فقلت، يا حبذا إن كان قائل هذا الصوت شخصاً صورته على قدر صوته واحتشمت، ثم إني قويت قلبي ورفعت الستر ودخلت الدهليز إلى أن انتهيت إلى آخره ومديت طرفي، وإذا أنا بدار قد أقبلت عليها السعادة، وزالت عنها الشقاوة، ورأيت في صدر ذلك المكان إيواناً وبركة وشاذروناً، وفي ذلك الإيوان تخت من السياج، وقوائمه من العاج، ومصفح بالذهب الوهاج، وفوق التخت فراش من الحرير الأطلس، ومسند مزركش، وعليه جارية نائمة خماسية القد، قائمة النهد لا بالطويلة الشاهقة ولا بالقصيرة اللاصقة، أشهر من علم، تربية العجم على أكتاف الخدم، بخد أسيل، وطرف كحيل، وخصر نحيل، وردف ثقيل، إن أقبلت فتنت، وإن ولت قتلت، كما قال فيها بعض واصفيها:

كمـا اشـتهت خلقـت حتـى إذا اعتـــــــــــــــدلت :: فـي قالـب الحسـن لا طـول ولا قصـــــــــــــــــر
جـرى بهـا الشـحم حتـى دار أعكنهـــــــــــــا :: طي القباطي فلا سمن ولا غور
كأنهـا أفرغـت مـن مـاء لؤلـؤةٍ :: في كل جارحـة من حسنها قمر

إلا أن الجارية، يا أمير المؤمنين، قد حكمت عليها يد الأيام ونزلت بها جميع الأسقام وعند رأسها طبيب، وهو يجس يدها ويقول: يا ست بدور، الضارب ضارب والساكن ساكن ولا برد ولا حمى ولا شيء تشتكينه أكثر من سهر الليل وجريان الدمع لعل الست في قلبها هوى من أحد، فلما سمعت كلام الطبيب أنشدت تقول:

إذا هممت بكتمان الهوى نطقت :: مدامعي بالذي أخفي من الألم
فإن أبح افتضح من غير منفعة :: وإن كتمت فدمعي غير منكتم
لكـن إلـى الله أشـكو مـا أكابـده :: مـن طـول وجـد ودمـع غيـر منصـــــــــــــــــرم

قال: فنهض الطبيب قائماً على قدميه فناولته صرة فيها عشرون ديناراً، ثم التفتت إلي وقالت: من أين يا شيخ؟ فقلت لها: من بغداد، حملني العطش إلى أن أتيت إلى هنا.

فقالت: لعل أن يكون على يدك فرجي، فأنا أكتب لك ورقة فتسال عن بيت الأمير عمرو وتعطيه إياها، فإن رددت علي الجواب فأنا أعطيك خمسمائة دينار.

ثم استدعت بدواة وورق وكتبت، وهي تقول: أما بعد، يعجز لساني ويكل جناني عن بث الأشواق، ولكن أسأل الكريم الخلاق أن يمن علينا بالتلاق بالسعد الرائق والأمر الموافق، وأنا القائلة حيث أقول:

سروري من الدنيا لقاكم وقربكم :: وحبكم فرض وما منكم بد
ولي شاهد دمعي إذا ما ذكرتكم :: جرى فوق خدي لا يطاق له رد
إذا الريح من نحو الحبيب تنسمت :: وجدت لمسراها على كبدي برد
ولا كنت إلا ما حييت لكم عبد

فوالله ما أحببت ما عشت غيركم :: فلا كان منكم ما جرى آخراً عهد
سلام عليك ما أمر فراقكم :

أما بعد، فهذا كتاب ممن ليلها في نحيب، ونهارها في تعذيب، لا أتركن إلى عاذلٍ ولا تصغي إلى قائل، قد غلبتها أيدي الفراق، ولو شرحت بعض ما عندها للفسيح ضاق وما وسعته الأوراق، ولكن أسأل الكريم الخلاق، رافع السبع الطباق، أن يمن علينا بالتلاق، وأنشدت تقول:

::
:
أحبة قلبي وإن جرتم :: علي فكل المنى أنتم
رحلتم وفي القلب خلفتم : لهيباً فهلا ترفقتم
وأودعتم يوم ودعتم :: بأحشاي ناراً وأضرمتم
وما كنتم تعرفون الجفا : على شؤم بختي تعلمتم
::
:

فألف ألف لا أوحش الله منكم والسلام مني عليكم عدد شوقي إليكم ما حن الغريب إلى الأوطان، وغرد حمام الأيك على البان، فرحم الله من قرأ كتابي وتعطف برد جوابي، وأنشدت تقول:

::
:
أحبابنا ما رقا دمعي لفرقتكم : يوم الفراق ولا كفت غواديه
بنتم فلم يبق لي من بعدكم جلد :: ولا فؤاد ولا صبر أرجيه
فكم أمني فؤادي بالهوى كذباً : ولست أول من بانت غواشيه
::
:

قال: ثم إنها طوت الكتاب وختمته بعد أ، نثرت فيه فتات المسك والعنبر، وناولتني إياه فأخذته، وأتيت إلى دار الأمير عمرو فوجدته في الصيد والقنص، فجلست على بابه ساعة أنتظره وإذا به قد أقبل، وهو راكب على حصان أشقر، من الخيل الضمر يساوي ملك كسرى وقيصر، من أولاد الأبجر، الذي كان لعنتر، إن طلب لحق، وإن طلب لم يلحق، والأمير في ظهره كأنه البدر في منزلته، والمماليك قد أحدقوا به كما تحدق النجوم بالقمر، وهو بخد أسيل وطرف كحيل وخصر نحيل وردف ثقيل وله عذار أخضر فوق خد أحمر وثغر جوهر وعنق مرمر كما قال فيه ابن

معشر:

قمر تكامل في نهاية حسنه ... مثل القضيب على رشاقة قده
فالبدر يطلع من ضياء جبينه ... والشمس تغرب في شقائق خده
ملك الجمال بأسره فكأنما ... حسن البرية كلها من عنده

قال أبو الحسن: فما أمهلته دون أن قبلت ركابه، فلما نظر إلي ترجل واعتنقني وأخذ بيدي وأدخلني الدار وأنشد يقول:

ما أظن الزمان يأتي بهذا ... غير أني رأيته في منامي

قال: فلما جلس على حافة البركة أقبل علي يحدثني ساعة، وإذا بالمائدة قد وضعت بين أيدينا، وإذا عليها من ألوان الطعام ما درج وتطاير في الأسحار، وتناكح في الأوكار من قطاً وسماني وأفراخ حمام وبط مسمن ودجاج محمر وأفراخ رضع وبعلبكات السكر فقال لي: بسم الله يا شيخ يا أبا الحسن، فقلت: لا والله يا مولاي، ما أكلت لك طعاماً ولا شربت لك مداماً، إلا أن قضيت لي حاجتي.

فقال: يا أبا الحسن كان هذا من الأول. أين الكتاب الذي للست بدور؟ فقلت: يا سيدي وما هي الست بدور.

فقال: التي جئت من عندها تطلب شربة من الماء منها، ووجدت عندها الطبيب وجرى لك معها ما هو كيت وكيت.

فقلت: يا مولاي أكنت حاضراً؟ فقال: لو كنت حاضراً فلأي شيء كتبت الكتاب؟ فقلت: هل جاء أحدُ من عندها وأعلمك؟ فقال: إنه لا يجسر أحدٌ من غلمانها أن يقابلني.

فقلت: ولا راح أحد من عندك إليها.

فقال: هي أخس وأحقر من أن يمضي إليها أحد من عندي.

فقلت: يا سيدي! الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى والوحي ما نزل إلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: يا عاقل أما سمعت قول القائل:

قلوب العاشقين لها عيونٌ : : ترى ما لا يراه الناظرونا
وأجنحة تطير بغير ريشٍ : : إلى ملكوت رب العالمينا

فقلت: صدقت يا مولاي، ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه ثم بصق فيه وداسه برجله ورماه في البركة فصعب علي، فلما علم مني ذلك قال: مم غيظك؟ اقعد الليلة عندي كل واشرب وخذ مني الخمسمائة دينار التي وعدتك بها الست بدور، وأنا أحب إليك منها وأنشد يقول:

رأيت شاة وذئباً وهي ماسكة : : بأذنه وهو منقاد لها ساري
فقلت: أعجوبة ثم التفت رأى : : ما بين نابيه ملقي نصف دينار
فقلت للشاة: ماذا الإلف بينكما : : والذئب يسطو بأنياب وأظفار
تبسمت ثم قالت وهي ضاحكة : : بالتبر يكسر ذاك الضيغم الضاري

قال: فلما سمعت كلامه، يا أمير المؤمنين تقدمت وأكلت بحسب الكفاية والنهاية. ثم انتقلنا إلى مجلس الشراب وقدمت بين أيدينا البوطي والسلاحيات، فتناول الأمير عمرو وشرب وسقاني، وأنا أحدثه وأنادمه إلى أن قرب الغروب فقال: يا أبا الحسن، ما لذة الأمير إذا شرب إلى المساء من غير غناء؟ فقلت: يقال: الشراب بلا طرب ولا سماع، الدن أولى به.

فقال لي: قم بسم الله.

فقمت معه إلى مجلس وحضيرة تنقط بالذهب واللازورد العجيب، وهي مزخرفة قد عبقت أزهارها وضحكت سلاحيتها وصفت بواطيها ورفعت أقداحها فجلس الأمير عمرو وأجلسني بجانبه وقدمت بين أيدينا الشموع وأسرجت القناديل فنظرت إلى مجلس عجيب وحضيرة مليحة ثم قلت: يا مولاي، قد تقدم القول: إن الشراب بلا سماع، الدن أولى به،

فصفق بكف وإذا بثلاث جوار قد أقبلن كأنهن الأقمار. الواحدة تحمل عوداً، والثانية تحمل دفاً، والثالثة تحمل مزماراً ثم نقرت الدفية على دفها، وألحت العودية عودها وزمرت الزامرة بمزمارها فخيل إلي أن المجلس الذي نحن فيه يرقص بنا ثم إن الدفية غنت تقول:

أحبابنا إنني من يوم فرقتكم :: على فراش الضنا ما زلت مضطجعا
داويت قلبي بحسن الصبر بعدكم :: عسى يفيق من الأسقام ما نفعا

فوالله يا أمير المؤمنين لقد طربت غاية الطرب من حسن صوتها. فلما فرغت الدفية ضربت العودية على عودها طرقاً عديدة، ثم رجعت إلى الطريقة الأولى وأنشدت تقول:

:: وجامع شملي لا خلا منك مجلسي
أمؤنس طرفي لا خلا منك :: يحل فما استوحشت فيه لمؤنسي ناظري
ويا ساكناً قلبي وما فيه غيره :: تصدق على صب من الصبر مفلس
وبالله يا أغنى الورى من ملاحة
أنلني الرضا حتى أغيظ به العدا :: ويا موحشي من بعد ما كان مؤنسي
رضاك الذي إن نلته نلت رفعة
:: وألبسني في الناس أشرف ملبس

قال: والله يا أمير المؤمنين لم نتمالك عقولنا من الطرب، ثم التفتت العودية نحو الدفية وقالت لها: يا فلانة أتحسني أن تقولي مثل هذا؟ فقالت الدفية: أنا أحفظ أبياتاً ما أظن أنك تحفظين لهن وزناً ولا قافية ولا عَروضاً.

فقالت العودية: هات ما عندك.

فنقرت الدفية على دفها بأناملها ورفعت صوتها وهي تقول:

كرر وردد ذكرهم في مسمعي :: فهم الشفا لتألمي وتوجعي
أقصر بعذلك يا عذول فإن لي :: قلباً لعذلك لا يفيق ولا يعي

فقالت لها العودية: أنا أحفظ الوزن والقافية والعروض.

فقالت الدفية: هات.

فضربت العودية طريقة من اثنين واثنين وأربعة وأربعة وثمانية وثمانية وستة عشرة وستة عشرة ثم عادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول:

إن لم أِل وادي إلا سيل بأدمعي ... أعلم بأني في الصبابة مدعي
يا سعد إن جئت الغوير وعاينت ... عيناك بأن المنحنى فلترجع
وخذ الحذار من الغزال المختفي ... واحذر يصيدك لحظ ذات البرقع

قال: والله يا أمير المؤمنين فلقد طربنا حتى قام كل منا ورقص. فلما فرغت الجارية قال لها سيدها: عن لي على الذي بقلبي وحدي، فعندها ساوت عودها وقالت:

ما كنت أول رامق صبا صبا ... نحو التصابي، وهو في عمر الصبا
فعلام يعذلني العذول على البكا ... لولا الغرام لما غدوت معذبا
حم الغرامُ بحكمه في مهجتي ... ولقد غدا قلبي به متقلبا
يا للرجال خبا الهوى بحشاشتي ... ناراً، فما تخبو على ذاك الخبا
ولقد سبى قلبي غزال لو رأت ... بلقيس طلعته لما سكنت سبا
ولقد هربت من الغرام فقال لي: ... مهلاً! فلن تجدن مني مهربا

فلما سمع الأمير عمرو ذلك صرخ ووقع على الأرض مغشيًّا عليه. فقالت الجارية: يا مولاي، إنه قد نام سيدي، فإن اخترت أن تنام فقم نم في مرقدك، وإن اخترت الشراب فدونك، ونحن بين يديك إلى الصباح.

فقمت ونمت فلما أصبحت قمت وسألت عن الأمير عمرو فقال بعض الجواري: إنه قد سرح إلى الصيد والقنص فأخذت شاشاً لألبسه فرأيت

تحته كيساً فيه ألف دينار، فأخذته وأتيت إلى الست بدور، وإذا بها واقفة خلف الباب تنظر وهي تقول:

::
يا رسولي إلى الحبيب اعتذر لي : فلعل الحبيب يقبل عذري
ثم قل للحبيب عني بلطف: :: أي ذنب جرى فأوجب هجري
:

فلما رأتني قالت: يا شيخ أقمح أم شعير؟ فقلت: لا والله ما هو إلا زوان، والله ما رضي يقرأ مكتوبك ولا يرد جوابك.

فرمت إلي الصرة وفيها مائة دينار، وقالت: اذهب يا أبا الحسن، ما مضى الليل وأتى النهار على شيء إلا وأزاله وغيره ويغير الله ما في القلوب.

ثم إنها أغلقت الباب في وجهي ومضت وعدت إلى دار الأمير محمد بن سليمان الزينبي فلقيته قد جاء من الصيد فقعدت عنده أياماً وأخذت رسمي وعدت إلى بغداد. ثم إني في السنة الثانية سافرت إلى البصرة على ما جرت العادة به ومضيت إلى الأمير عمرو بن جبير الشيباني لأتمتع بذلك الوجه المليح والقد الرجيح، فوجدت الدار متغيرة الآثار والعبيد لابسين السواد فلما رأيت ذلك بكيت وأنشدت أقول:

::
يا دار أين ترحل السكان : وسرت بهم من بعدها الأظعان
بالأمس كان بك الضياء مع الهنا :: واليوم عرصاتك الغربان
:

فسمعني بعض الغلمان، فظهر لي وقال: من ذا الذي يبكي على ديارنا ويندب منازلنا؟ كفى بنا ما عندنا.

فقلت له: يا عبد الخير، إن صاحب هذه الدار كان من أصدق الناس إلي فما فعل به الزمان؟ فقال لي الغلام: يا مولاي هو في قيد الحياة. وهو يطلب الموت فلا يجده.

فقلت له: بالله عليك خذ لي الطريق.

فقال لي الغلام: يا مولاي من أقول.

فقلت: قل الشيخ أبو الحسن الخليع الدمشقي المسامر.

قال: فعبر الغلام وغاب ساعة وعاد وقال لي: بسم الله أدخل. ويقول له: يا مولاي الضارب ضارب والساكن ساكن لا برد ولا حمى ولا تشتكي غير سهر الليل وجريان الدمع، لا يكون المولى إلا مسحوراً.

فلما سمع الأمير عمرو كلام الطبيب بكى وأنشد يقول:

قال الطبيب لقومي، حين جس :: يـــــــــــــــــــــــدي : هذا فتاكم ورب البيت مسحور
فقلت: ويحك قد قاربت في :: صـــــــــــــــــــــــفتي : عين الصواب فهلا قلت مهجور

ثم إنه ناوله كاغداً فيه بعض دنانير، فأخذها الطبيب وانصرف ثم التفت الأمير عمرو إلي وقال: يا شيخ أبي الحسن أما تنظر إلى هذا الحال الذي وقعت فيه؟

فقلت له: حاشاك من الأسوأ ما سبب ذلك؟ قال: ما أعرف له سبباً إلا أن هجر الست بدور قد قتلني وحبها أضنى فؤادي.

فقلت: يا مولاي، بالعام الماضي تركتك أميراً، واليوم أتيت لقيتك أسيراً فما السبب؟ فقال الأمير عمرو: يا شيخ إني في ليلة من الليالي ركبت في الشط، وقد شحنت مركبي من سائر الأزهار والفواكه والرياحين والطعام والمدام، وأوقدت الشموع حتى صارت مثل ضوء النهار، وقد غرقنا في البسط، وبقينا في لعب وضحك إلى ثلث الليل الأول، وإذ قد أقبل من صدر الشط مركب وهو يعزف بالطارات والدفوف ويضيء كضوء الشمس وفيه وهج عظيم، فقلت للملاح: قدم بنا حتى نتفرج وننظر أينا أحسن تعبية مركبنا أو هذا المركب؟ فمددت عيني فرأيت صاحبتي الست بدور، وهي بين جواريها وغلمانها تلعب وتضحك، وهي مثل اسمها، اسم على مسمى، فلما وقعت عيني عليها، كأنما رمت في قلبي جمرة نار فقلت في نفسي: ما فارقت هذا الوجه المليح بذنب. ثم إني تذكرت العهد القديم الذي كان بيننا فلم أقدر أن أصبر، فمددت يدي وأخذت تفاحة ورميتها إلى الست بدور فالتفتت فرأتني. فقالت للملاح: ارجع بنا إلى البر، نحن خرجنا هذه الليلة ننشرح، فأرسل الله لنا هذا الفتى ينغص علينا عيشنا. فلما سمعتها تشتمني أضرمت النار في قلبي ثم قلت لنفسي: أنت كنت المطلوب فصرت

الطالب، فلم يهن لي عيش في هذه الليلة فقلت للملاح: ارجع إلى الشط. ثم إني نزلت ومضيت إلى منزلي وما ذقت طعم المنام. فلما أصبحت لم يقر لي قرار وصرت أترقب أن يأتي أحد من عندها، ثلاثة أيام، فلم يأت أحد فبعثت من يعرض بذكري لها، فدعت عليهم وشتمتهم. فكتبت لها بعد ذلك ألف كتاب، فلم ترد لي جواباً، وقد رميت روحي على كل كبير في البصرة، فيدخلون عليها فلم تقبل ولم تزدد إلا جفاء، ولي مدة أنتظرك يا شيخ أبا الحسن حتى أبعث معك كتاباً وأنا أحلف لك إن هي ردت لك جوابه أعطيتك ألف دينار، وإن لم ترد جوابه أعطيتك مائة دينار.

فقلت له: اكتب!.

فدعا بدواة وقرطاس وكتب في أول الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من متيم يشكو إليك الصبابة ويسألك بالله أن تردي جوابه. أما بعد، فإنه يعجز لساني ويكل جناني مما أنا فيه من طول السهر ودوام الفكر، وبكى لبكائي أصم الحجر فألف ألفٍ لا أوحش الله منك والسلام عليك.

ثم ختم الكتاب وناولني إياه فأخذته وأتيت به إلى دار الست بدور، فلقيت الباب على غير تلك الحالة الأولى عليه ستر مرخي وبواب وخادم. فقلت: لا إله إلا الله، كان هذا الباب بالأمس خالياً من الأصحاب، واليوم عليه خادم وبواب، ثم إني تقدمت إلى الخادم، وقلت له: قم يا ولدي ادخل واستأذن على مولاتك الست بدور وقل لها: الشيخ أبو الحسن الخليع الدمشقي قد أتى ويطلب المثول بين يديك.

فغاب الخادم ثم عاد مسرعاً وقال: بسم الله ادخل.

فدخلت الدهليز فسمعت الست بدور وهي تقول:

ولأصبرن على الزمان وجوره ∴ حتى يعود كما أريد وأشتهي

قال: فلما دخلت رأيتها قاعدة على حافة البركة، وبين يديها جارية تروح لها، فتقدمت وقبلت يدها وجلست فنظرت، وإذا عليها غلالة لازوردية، وجميع جسدها بائن من تحت الغلالة كأنه عمود مرمر، وعلى الغلالة مكتوب هذه الأبيات:

أقبلـــت فـــي غلالـــة زرقـــاء ... لازورديـــــة كلـــون ســـماء
فتأملـــت فـــي الغلالـــة ألقـــى ... قمـر الصيف فـي ليـالي الشتاء
ليتنـــي كنـــت للمليحـــة عقـــداً ... أو لثامـــاً للوجـــه مثـــل الـــرداء
أو قميصـــاً مـــن الحريـــر خفيفـــاً ... لاصـــقاً بـــالفؤادِ والأحشـــاء
ضـربتني بخنجـر العشـق حتـى ... صـرت ملقـى مخضـباً بـدمائي
تركتنـــي علـــى الطريـــق ونـــادت ... مـــن يصـــلي علـــى قتيـــل هـــوائي

ثم إني لما فرغت من قراءة الأشعار قالت لجاريتها: هات لي بذلة قماش، ثم غيرت ما كان عليها، وجلست ثم أمرت بإحضار المائدة وقالت: بسم الله، كل يا أبا الحسن.

فقلت: لا والله لا أكلت لك طعاماً ولا شربت عندك مداماً حتى تقضي حاجتي.

فقال: كان هذا من الأول لكن والله قد وقعت من عيننا برواحك إلى الأمير عمرو قبل مجيئك إلينا.

فقلت لها: أنا ما رحتُ.

فقالت: تكون شيخاً وتكذب، أنت ما عبرت عليه ولقيت الطبيب، وهو يقول له: كيت وكيت، وجرى لك معه كذا وكذا، وهذا الكتاب في طي عمامتك وبالأمارة قال لك: إن ردت الجواب أعطيتك ألف دينار وإن لم ترد لي الجواب أعطيتك مائة دينار؟ فقلت: يا ستي من أعلمك بهذا؟ فقالت: أليس القائل يقول:

قلـــوب العاشـــقين لهـــا عيـــون ... تـــرى مـــا لا يـــراه الناظرونـــا

وأنا يا شيخ أبا الحسن أعشق منه وأرى أكثر مما يراه.

فقلت: صدقت يا مولاتي، كان ذلك.

ثم ناولتها الكتاب ففضته وقرأته ثم إنها مزقته وبصقت عليه، وداسته ورمته في البركة. فلما رأيت ذلك قلت في نفسي: هذا بذاك وفرض الدين لا بد له من وفاء إلا أني حصل لي بعض غيظ على الألف دينار التي تفوتني، فنظرت إليَّ وعرفت مني ذلك فقالت: يا شيخ أبا الحسن مم غيظك؟ إن كان وعدك بألف دينار، فبت الليلة عندي وكل واشرب والتذ واطرب، وخذ لك غداً مني ألف دينار وامض في حفظ الله.

فقلت: يا سيدتي يكاد الأمير عمرو أن يموت.

فقالت: دعنا من هذا الكلام.

ثم إن المائدة حضرت فأكلنا بحسب الكفاية، فلما فرغنا قالت: يا شيخ أتعرف لعب الشطرنج.

قلت: ما ألعب إلا على الحكم والرضا.

فقالت: نعم. ثم دعت بالشطرنج فوضع بين أيدينا ولعبت معها الدست الأول، غلبتني فأمرت الجواري أن يرموني في البركة، فمسكوني ورموني في البركة، فضحكت علي ساعة. ثم أخرجوني وقد ابتلت جميع حوائجي. فلما رأتني على تلك الحالة أمرت ببذلة من القماش من أفخر الملبوس فلبست فقالت: أتلعب أيضاً على الحكم والرضا؟ قلت: نعم، فلعبنا فاحتلت عليها، وأتيت لها بحكاية لطيفة مضحكة وشغلتها وسرقت القطع إلى أن غلبتها وتحكمت فيها وقلت: أريد الألف دينار وجواب الكتاب فأعطتني الألف دينار، وطلبت دواة والقرطاس، ثم إنها أطرقت ساعة ورفعت رأسها وكتبت تقول:

ألا يا عمرو كم هذا العناء ... وكم هذا التجلد والجفاء
كتبت إلي تشكو ما تلاقي ... من الأسقام إذ نزل القضاء
فسقم لا يزال بطول دهر ... وداء ما له أبداً دواء
ولو ساعدتنا يا عمرو يوماً ... لساعدناك إذ نزل البلاء
فعش ضبًّا ومت كمداً حزيناً ... فواحدةٌ بواحدةٍ جزاء

::

فلما فرغت ناولتني الورقة فقرأتها فقلت: يا ستي، بالله عليك لا تفعلي وارحمي الأمير عمراً واكتبي له غير هذا.

فقالت: يا شيخ أبا الحس، أنت رسول أو فضولي؟ فقلت لها: رسول وفضولي وطفيلي، ويعظ القطط ويحلف أنه ما يبيت إلا في الوسط ويغني بليت بكم.

قال: فضحكت من كلامي، وقالت: حكمتك في نفسي.

فقلت: ست بدور أين تلك المحبة التي كنت تحبينها للأمير عمرو؟ فلو أبصرته ما عرفته من شدة ما يقاسي من الأسقام والآلام والأمراض.

فلما سمعت ذلك قالت: أخبرني عن أقوى شيء به من المرض؟ فقلت: يا سيدتي، ما أقدر أصف لك بعض ما فيه من ألم المرض. فترغرغت عيناها بالدموع ثم قالت: يعز علي ما وصفت لي عنه وروحي لروحه الفداء فالحمد لله الذي جعل اجتماعنا على يديك. ثم دعت بدرجٍ غير تلك الورقة وكتبت في أول الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم إنها ابتدأت تنشد وتقول:

::

وصل الكتاب فلا عدمت أناملاً : عنيت به حتى تضوع طيبا
ففضضته وقرأته، فوجدته :: لخفي أوجاع القلوب طبيبا
فكأن موسى قد أعيد لأمه : أو ثوب يوسف قد أتى يعقوبا

::

المملوكة تقبل الأرض وتنهي أن شوقها شديد، وغرامها ما عليه من مزيد، ومأمولها من الحميد المجيد أن يجمع شملها بك قبل أن تريد، وأقول:

::

أشتاقكم حتى إذا نهض الهوى : لمقامكم قعدت بي الأيام
والله إني لو وصفت صبابتي :: فني المداد وقلت الأقلام

:

ثم إنها نثرت فتات المسك والطيب في رسالتها وطوتها وحققتها

وناولتني إياها فأخذتها وقمت مسرعاً وأنا فرحان إلى أن أتيت دار الأمير عمرو ودخلت الدهليز فسمعته يقول:

ترى حرمت كتب المحبة بيننا! ⁝ أسحر أم القرطاس أصبح غاليا

فاستأذنت عليه ودخلت فلما رآني قال لي: أقمح أم شعير؟ فقلت له: قمح مغربل ليس فيه كدر. ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه فلما فهم معناه تهلل وجهه بالفرح فبكى وقال:

هجم السرور علي حتى إنه ⁝ من فرط ما قد سرني أبكاني
يا عين! قد صار البكا لك عادةُ ⁝ تبكين في فرح وفي أحزانِ

فلما فرغ من البكاء قال لي: يا شيخ ما أظن الحديد يلين ولا الصخر يذوبُ نعل أن تكون صنت هذا الكتاب من عندك؟ فقلت:يا مولاي والله ما صنعته ولا كتبته بل هو خطها بيدها.

فبينما هو يخاطبني، إذ هي عبرت علينا وهي تخطر لفي قوامها وهي تنشد وتقول:

نزوركم لا نجازيكم بجفوتكم ⁝ إن الكريم إذا لم ستزر زارا

فلما رآها الأمير عمرو نهض قائماً على قدميه ورمى بروحه عليها واعتنقها واعتنقته ساعة زمانية، فقمت لأخلي لهما المكان، فقالت الست بدور: إلى أين تروح يا شيخ؟ قلت: أخلي لكما المكان لأنكما ما اجتمعتما من مدة سنة كاملة.

فقالت: لا تفارقني من الساعة إلى الصباح.

فقام الأمير عمرو وأخذنا ومضى بنا إلى مجلس مليح وقدم لنا الطعام المفتخر وأمر بإزالة كل شيء كان عليه من آلة الحزن وجيء له بالماء فغسل يديه وغسلنا أيدينا، وانتقلنا إلى مجلس الشراب، وبتنا في لذة ورأيت الماوية تدب في وجه الأمير عمرو. فلما أَصبحت قالت: يا شيخ أبا الحسن، امض وائتنا بالقاضي والشهود.

فلم يكن بأسرع مما أن ضرتهم. فقالت الست بدور للقاضي: اكتب

كتابي على الأمير عمرو، وقد وليت الشيخ أبا الحسن عقد النكاح.

فخطب القاضي خطبة النكاح وعقد العقد بينهما، فرسم الأمير عمرو للقاضي بألف دينار وللشهود بمائتي دينار، وعمل الوليمة وطبخ الطعام وعمل الحلاوات وجمع الناس ووضع بين أيديهم الموائد وأطعم الشارد والوارد، وزفت الست بدور تلك الليلة إلى الأمير عمرو، فلما وقفوا على المنصة قلت: ما تصلح إلا له ولا يصلح إلا لها، ولو رآها غيره لزلزلت الأرض زلزالها، ثم تقدمت إلى الأمير عمرو وقلت له: يا مولاي، المثل يقول: العصفور يتفلى والصياد يتقلى، وأنتم تقولون: واطرباه وأنا أقول: وا حزناه.

فقالت الست بدور: ما معنى كلامك هذا؟ قلت: يا سيدتي الأمير عمرو وعدني بوعد والوعد على الكرماء دين.

فقالت الست بدور: صدق الشيخ أعطه الذي وعدته به. فقال الأمير عمرو لبعض غلمانه: أعط الشيخ أبا الحسن ألفاً وخمسمائة دينار، يستحق أكثر من ذلك.

فمضى الغلام وعاد بسرعة ومعه كيس وناولني إياه وأعطتني الست بدور مثله. ثم إني ودعتهم وخرجت إلى أن أتيت إلى الأمير محمد بن سليمان الزينبي، وقعدت عنده على عادتي، وأخذت رسمي الذي عليه في كل سنة وعدت إلى بغداد فما رأيت سنة أبرك علي منها، حصل لي فيها أربعة آلاف دينار.

وهذا جملة الحديث فتعجب الخليفة وقال: ما قصرت يا شيخ أبا الحسن خذ من جعفر ألف دينار لأنك أنت الذي أزلت عني ما بقلبي.

فقال جعفر: ومن عند أمير المؤمنين ألف دينار لأنه هو الذي زال عنه ما كان يجده.

فقال أبو الحسن: صدق الوزير أبقاه الله تعالى، ثم إنه قبض الألفين ديناراً ومضى إلى منزله والله أعلم[1]:

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 64 - 69.

الرشيد يبكي على البرامكة:

قال يحيى بن سلام الأبرش، قال: حدثني أبي قال: خرج الرشيد للصيد يوماً بعدما أباد البرامكة فاجتاز بجدار خراب من جدران بني برمك فرأى لوحاً مكتوباً عليه هذه الأبيات:

::
:
يـا منـزلاً لعـب الزمـان بأهلـه :: فأبـــادهم بتفـــرق لا يجمـــع
إن الـذين عهـدتهم فيمـا مضـى : كـان الزمـان بهـم يضـر وينفـع
أصبحت تفزع من رآك، وطالما :: كنـا إليـك مـن المخـاوف نضـرع
ذهـب الـذين يعـاش فـي أكنـافهم : وبقـــي الـــذين حيـــاتهم لا تنفـــع
::
:

قال: فبكى الرشيد، وأقبل على الأصمعي وقال: أتعرف شيئاً من أخبار البرامكة تحدثني به؟ فقال الأصمعي: ولي الأمان.

قال: ولك الأمان.

فقال: أحدثك بشيء شاهدته بعيني من الفضل بن يحيى، وذلك أنه خرج يوماً للصيد والقنص، وهو في موكبه، إذ رأى أعرابيًّا على ناقة قد أقبل من صدر البرية يركض في سيره، قال: هذا يقصدني.

فقلت: ومن أعلمك؟ قال: لا يكلمه أحدٌ غيري.

فلما دنا الأعرابي ورأى المضارب تضرب والخيام تنصب والعسكر الكثير، والجم الغفير، وسمع الغوغاء والضجة، ظن أنه أمير المؤمنين، فنزل وعقل راحلته وتقدم وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

قال: الآن قاربت، اجلس.

فجلس الأعرابي فقال له الفضل: من أين أقبلت يا أخا العرب؟ قال: من قضاعة.

قال: من أدناها أم من أقصاها؟ قال: من أقصاها.

قال الأصمعي: فالتفت إلي الفضل وقال: كم من العراق إلى أرض قضاعة.؟ فقلت: ثمانمائة فرسخ.

فقال: يا أخا العرب، مثلك لم يقصد من ثمانمائة فرسخ إلى العراق إلا لشيء.

قال: قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قد اشتهر معروفهم في البلاد.

قال: من هم؟ قال: البرامكة.

قال الفضل: يا أخا العرب البرامكة خلق كثير، وفيهم جليل وخطير، ولكن منهم خاصة وعامة، فهلا أفردت لنفسك منهم من اخترت لنفسك وأتيته لحاجتك؟ قال: أجل! أطولهم باعاً وأسمحهم كفًّا.

قال: من هو؟ قال: الفضل بن يحيى بن خالد.

فقال له الفضل: يا أخا العرب، إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر، إذا جلس للناس مجلساً عامًّا لم يحضر مجلسه إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب والمناظرون للعم، أعالم أنت؟ قال: لا.

قال: أفأديب أنت؟ قال: لا.

قال: أفعارفٌ أنت بأيام العرب وأشعارها؟ قال: لا.

قال: هل وردت على الفضل بكتاب وسيلة؟ قال: لا.

فقال: يا أخا العرب غرتك نفسك، مثلك يقصد الفضل بن يحيى، وهو كما عرفتك عنه من الجلالة، بأي ذريعة أو وسيلة تقدم عليه؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما قصدته إلا لإحسانه المعروف وكرمه الموصوف وبيتين من الشعر قلتهما فيه.

فقال الفضل: يا أخا العرب أنشدني البيتين فإن كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرت عليك بلقائه، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما برزتك بشيء من مالي ورجعت إلى باديتك وإن كنت لم تستحق بشعرك شيئاً. قال: أفتفعل أيها الأمير؟ قال: نعم.

قال: فإني أقول:

ألم تر أن الجود من عهد آدم ∴ تحدر حتى صار يملكه الفضل
ولو أن أمًّا قضها جوع طفلها ∴ ونادت على الفضل بن يحيى اغتذى الطفل

قال: أحسنت يا أخا العرب. فإن قال لك هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر، وأخذ الجائزة عليهما، فأنشدني غيرهما فما تقول؟ قال: أقول:

قد كان آدم حين حان وفاته ∴ أوصاك، وهو يجود بالحوباء
ببنيه أن ترعاهمو، فرعيتهم ∴ وكفيت آدم عيلة الأبناء

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك: الفضل ممتحناً: هذان البيتان أخذتهما من أفواه الناس، فأنشدني غيرهما ما تقول، وقد رمقتك الأدباء بالأبصار، وامتدت الأعناق إليك، وتحتاج أن تناضل عن نفسك؟ قال: إذن أقول:

ملت جهابذ فضل وزن نائله ∴ ومل كاتبه إحصاء ما يهب
والله لولاك لم يمدح بمكرمة ∴ خلق، ولم يرتفع مجد ولا حسب

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك هذان البيتان أيضاً أخذتهما من أفواه الناس ما كنت قائلاً؟ قال: أقول:

وللفضل صولات على مال نفسه ∴ يرى المال منه بالمذلة والعنا
ولو أن رب المال أبصر ماله ∴ لصلى على مال الأمير وأذنا

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل: هذان البيتان مسروقان، أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال: إذن أقول:

ولو قيل للمعروف ناد أخا العلا ∴ لنادى بأعلي الصوت يا فضل يا
ولو أنفقت جدواك من رمل ∴ فضل
عالج ∴ لأصبح من جدواك قد نفد الرمل

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل: هذان البيتان مسروقان أيضاً أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال: أقول:

وما الناس إلا اثنان: صب وباذلٌ : وإني لذاك الصب والباذل الفضل
على أن لي مثلاً كما ذكر الورى :: وليس لفضلٍ في سماحته مثل

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل: أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال: أقول أيها الأمير:

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد : فقامت به التقوى وقام به العدل
وقام به المعروف شرقاً ومغرباً :: ولم يك للمعروف بعدٌ ولا قبل

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك: قد ضجرنا من الفاضل والمفضول أنشدني بيتين على الكنية لا على الاسم ما تقول؟ قال: إذن أقول:

ألا يا أبا العباس يا واحد الورى : ويا ملكاً خد الملوك له نعل
إليك تسير الناس شرقاً ومغرباً :: فرادى وأزواجاً كأنهم نحل

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل: أنشدنا غير الاسم والكنية والقافية.

قال: والله لئن زادني الفضل وامتحنني بعد هذا لأقولن أربعة أبيات ما سبقني إليها عربي ولا أعجمي، ولئن زادني بعدها لأجمعن قوائم ناقتي هذه وأجعلها في حر أم الفضل وأرجعن إلى قضاعة خاسراً، ولا أبالي. فنكس الفضل رأسه، وقال للأعرابي: يا أخا العرب أسمعني الأبيات الأربعة: قال: أقولك

ولائمةٍ لامتك، يا فضل، في الندى : فقلت لها: هل يقدح اللوم في البحر
أتنهين فضلاً عن عطاياه للغنى :: فمن ذا الذي ينهى السحاب عن القطر
كأن نوال الفضل في كل بلدةٍ

كأن وفود الناس في كل وجهة :: تحدر هذا المزن في مهمة قفر
: إلى الفضل لاقوا عنده ليلة القدر
::
:

قال: فأمسك الفضل عن فيه، وسقط على وجهه ضاحكاً، ثم رفع رأسه وقال: يا أخا العرب، أنا والله الفضل بن يحيى، سل ما شئت.

فقال: سألتك بالله أيها الأمير إنك لهو؟ قال: نعم.

قال له: فأقلني.

قال: أقالك الله، اذكر حاجتك.

قال: عشرة آلاف درهم.

قال الفضل: ازدريت بنا وبنفسك، يا أخا العرب، تعطى عشرة آلاف درهم في عشرة آلاف.

وأمر بدفع المال، فلما صار المال إليه حسده وزيره الفضل، وقال: يا مولاي هذا إسراف يأتيك جلف من أجلاف العرب بأبيات استرقها من أشعار العرب فتجزيه بهذا المال؟ فقال: استحقه بحضوره إلينا من أرض قضاعة.

قال الوزير: أقسمت عليك يا مولاي إلا أخذت سهماً من كنانتك وركبته في كبد قوسك وأومأت به إلى الأعرابي فإن رد عن نفسه ببيت من الشعر، وإلا استعدت مالك، ويكون له في بعضه كفاية.

فأخذ الفضل سهماً وركبه في كبد قوسه وأومأ به إلى الأعرابي وقال له: رد سهمي ببيت من الشعر؟ فأنشأ يقول:

لقوسك قوس الجود والوتر :: وسهمك سهم العز فارم به
والندى : فقري

قال: فضحك الفضل وأنشأ يقول:

:: فلا انبسطت كفي ولا نهضت
إذا ملكت كفي منالاً ولم أنل : رجلي
على الله إخلاف الذي قد بذلته :: فلا مسعدي بخلي ولا متلفي
أروني بخيلاً نال مجداً ببخله : بذلي
:: وهاتوا كريماً مات من كثرة

: البـــــــــــــــــــــــــــــذل

ثم قال الفضل لوزيره: أعط الأعرابي مائة ألف درهم لقصده وشعره، ومائة ألف درهم ليكفينا شر قوائم ناقته.

فأخذ الأعرابي المال وانصرف، وهو يبكي فقال له الفضل: مم بكاؤك يا أعرابي استقلالاً بالمال الذي أعطيناك؟ قال: لا، ولكني أبكي على مثلك يأكله التراب وتواريه الأرض، وتذكرت قول الشاعر:

::

لعمرك ما الرزية فقد مال : ولا فرس يموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر :: يموت لموته خلقٌ كثير

:

وتوجه الأعرابي بالمال مسروراً رحمة الله عليهم أجمعين[1].

الرشيد وذقن أبي نواس:

ويحكى أن الرشيد قال لأبي نواس: بعني ذقنك؟ قال: بكم؟ قال: بألف دينار.

قال: بعتك.

فقال الرشيد لخازن داره: ادفع له ألف دينار، فدفعها له فأخذها وربطها وقال: يا أمير المؤمنين خذ ما اشتريت.

قال: لا، ولكن جعلتها وديعة عندك.

قال: فمضى أبو نواس واشتغل بأمره ولهوه، وهو خائف على ذقنه من أمير المؤمنين. قال: فبينما هو متفكر في شيء يفعله إذ جاء قاصد أمير المؤمنين، فلم يقدر أن يتكلم دون أن قام معه ودخل إلى دار الخلافة، فوجده في جمع كثير من خواص المملكة وأعوان الدولة، وكان من شأنه أن يجلس بالقرب من أمير المؤمنين، فتحادثوا وتماجنوا فضرط أبو نواس ضرطة مزعجة أزعجت الحاضرين، فضحكوا جميعاً، وضحك أمير المؤمنين وقال له: في ذقنك يا معرص.

فقال له في الحال: الله أعلم هي ذقن من؟ فقال أمير المؤمنين: قد

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 80 - 82.

وهبتها لك يا ملعون.

فأخذها وانصرف وكسب الألف دينار بهذه الحيلة والله أعلم، انتهى[1].

يضرب الشاة الحد:

وكان نصر بن مقبل عاملاً على الرقة، فأتى برجل من الظرفاء وجده ينكح شاة فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: أيها الأمير، إنها والله ملك يميني، وقد قال الله تعالى:{ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ} [النساء: ٣].

فأطلقه وأمر بضرب الشاة الحد، فإن ماتت تصلب.

قالوا: أيها الأمير إنها بهيمة.

قال: وإن كانت بهيمة فإن الحدود لا تعطل وإن عطلتها فبئس الوالي أنا.

فانتهى إلى الرشيد خبرها ولم يكن رآه قبل فدعا به فلما حضر بين يديه، قال: من أنت؟ قال: مولى لكلب.

فضحك منه ثم قال: كيف بصرك بالحكم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، البهائم عندي والناس سواء، ولو وجب حد على بهيمة، وكانت أمي أو أختي لحديتها ولم تأخذني في الله لومة لائم. فأمر الرشيد أن لا يستعان به على عمل فلم يزل معطلاً إلى أن مات، والله أعلم.

الرشيد يأمر بقتل أبي نواس:

ويحكى أن هارون الرشيد أمر بقتل أبي نواس فقال: أتقتلني شهوةً لقتلي؟ فقال: لا، بل أنت مستحق للقتل.

قال: فيم استحقيت القتل؟ قال: بقولك:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر :: ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهر

فقال: يا أمير المؤمنين، أفتعلم أنه سقاني وشربت؟ فقال له أمير المؤمنين: أظن ذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين، أفتقتلني على الظن، وقد قال الله تعالى:{ﭘ

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 83، 84.

پ پ پ} [الحجرات: ١٢].

فقال له الرشيد: قد قلت ما تستحق به القتل.

فقال: ما هو؟ فقال له: قولك:

مـــا جاءنـــا أحـــدٌ يخبـــر أنـــه ⁝ فـي جنـةٍ مـن مـاتَ أو فـي نـار

فقال له: يا أمير المؤمنين! هل جاءنا أحدٌ؟ قال: لا.

قال: أتقتلني على الصدق؟ فقال له الرشيد: أولست القائل:

يـا أحمدُ المرتجى فـي كل نائبـة ⁝ قم سيدي نعس جبار السماوات

فقال له: يا أمير المؤمنين! أو صار القول فعلاً؟ قال: لا أعلم.

قال: أفتقتلني على ما لم تعلم.

فقال له أمير المؤمنين: دع هذا كله، فقد اعترفت في مواضع كثيرة من شعرك بالزنا.

قال أبو نواس: قد علم الله هذا قبل علم أمير المؤمنين بقوله تعالى: {ۇ ۆ ۆ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە} [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦].

فقال الرشيد: خلوا عنه.

ومن هذا أخذ الصفي الحلي فقال:

نحـن الألـى جـاء الكتـاب مخبـراً ⁝ بعفـاف أنفسـنا وفسـق الألسـن

تغفر ذنوبه بأبياتٍ:

وعن محمد بن نافع، قال: رأيت أبا نواس في النوم بعد موته، فقلت: يا أبا نواس!.

فقال: لا حين كنيت.

فقلت: الحسن بن هانئ.

قال: نعم.

قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بأبياتٍ قلتها على علتي قبل موتي

هي تحت الوسادة.

فسألت أهله فقلت: هل قال أخي شعراً؟ قالوا: لا نعلم! إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندري ما هو.

فدخلت ورفعت وسادته وإذا أنا برقة مكتوب فيها:

يا رب! إن عظمت ذنوبي كثرةً ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ ... فمن الذي يدعو ويرجو المجرم
ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم إني مسلم (1)

وما جرى بينهما على يد القاضي بسبب الجراب:

قيل: إن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة، فاستدعى بوزيره جعفر البرمكي، فلما حضر عنده قال له: يا جعفر، إني قلقت وضاق صدري وأريد منك شيئاً يشرح خاطري.

فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إن لي صديقاً اسمه علي العجمي، وعنده من جميع الحكايات والأخبار.

فقال: علي به.

فقال: سمعاً وطاعةً.

ثم إن جعفراً خرج من عند الخليفة في طلب علي العجمي، فأرسل خلفه فلما حضر قال: أجب أمير المؤمنين.

قال: سمعاً وطاعة.

فأتى الخليفة فسلم وترحم، فقال له: اجلس فجلس، فقال له الخليفة: اسمع يا علي، إنني الليلة ضيق الصدر، وسمعت عنك أن في ذهنك حكاياتٍ وأخباراً وأريد منك أن تسمعني ما يزل همي وفكري.

فقال: يا أمير المؤمنين، تريد أن أحكي لك شيئاً سمعته أو رأيته؟ فقال: إن كنت رأيت شيئاً فاحكه.

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 84.

فقال: سمعاً وطاعةً؟! اعلم يا أمير المؤمنين أني سافرت في بعض السنين من بلدي إلى هذه المدينة، وهي بغداد، وصحبني غلام ظريف ومعه جراب نظيف، فأودعني إياه. فبينا أنا أبيع وأشتري، وإذا أنا برجل كردي ظالم معتد هجم علي وأخذ الجراب مني وقال: هذا الجراب جرابي، وكل ما فيه قماشي وثيابي.

فقلت: يا معشر الناس قد اعتراني الوسواس.

فقال الناس جميعاً: امضوا إلى القاضي، وكل بحكمه راضي.

فدخلنا عليه، وتمثلنا بين يديه، فقال القاضي: في أي شيء جئتما؟ فقال الكردي: نحن خصمان.

قال: أيكما المدعي؟ فتقدم الكردي، وقال: أيد الله مولانا القاضي! هذا الجراب جرابي، وكل ما فيه قماشي وثيابي، وقد ضاع ووجدته مع هذا الرجل.

فقال القاضي: ومتى ضاع منك؟ فقال الكردي: ضاع مني بالأمس.

فقال القاضي: إن كنت عرفته فصف لي ما فيه.

فقال الكردي: إن في جرابي هذا مرودين من لجين، وأكحالاً لعينين، ومنديلاً لليدين، ومشربتين مذهبتين، وشمعدانين ومكبتين وطبقين، وإبريقين، وصينية وطشتين، وقدر ودستين، ومغرفة وملعقتين، ومسلة ومقلمةٌ وملبتين، وقعباً وقصعتين، ومخدة ونطعين، وجبة وفروتين، وبقرة وعجلتين، وعنزاً وشاتين، ونعجة وخروفين، وقطين أبلقين، وجملاً وناقتين، وبقرة وثورين، ولبوة وسبعين، ودبة وثعلبين، ومرتبة وسريرين، وطبقة وقاعتين، ورواقاً ومقعدين، ومطبخاً ببابين، وجماعة أكرادٍ يشهدون أن الجراب جرابي.

فقال القاضي: فما تقول أنت يا علي؟ فتقدمت يا أمير المؤمنين، وقد بهتني كلامه فقلت: أعز الله مولانا القاضي، أنا ما في جرابي إلا دويرة حراب وأخرى بلا باب ومقصورة للكلاب وفيه للصبيان كتاب وشبان يلعبون بالكعاب، وفيه عساكر وأطناب ومدينة بصرى وبغداد، وقصر

كنعان بن شداد، وكور وحداد، وشبكة وصياد وعصا وأوتاد، وبنات وأولاد وألف قواد يشهدون أن الجراب جرابي.

فلما سمع الكردي هذا الكلام بكى وانتحب وقال: يا سيدي القاضي، جرابي هذا معروف، وكل ما فيه موصوف، في جرابي هذا حصون وقلاع وقرى وضياع وطابق للصِراع ووحوش وضباع ورجال يلعبون الطابة والرقاع، وإن في جرابي هذا حجرة ومهرين وفحلاً وحصانين ورمحين طويلين وسبعاً وأرنبين، وسكيناً وخنجرين، وبحراً وخليجين، وكمراً وجوختين، وعشاري وموكبين، وصاري وقريتين، وكوراً ودكانين، ومنقلة ونردين، وعجوزاً وقحبتين، وقواداً وشاطرين ومخنثاً وعلقين وأعمى وبصيرين وأعرج وكسيحين وعياراً وأزعرين وجامعاً ومدرستين وديراً وكنيستين وقسيساً وشماسين وبطركاً وراهبين وقاضياً وشاهدين يشهدون أن الجراب جرابي.

فقال القاضي: ما تقول أنت يا علي.

فبادرت يا أمير المؤمنين، وقد امتلأت غيظاً وزدت في الحمق وقلت: أيد الله مولانا القاضي! إن في جرابي هذا زردخانات صِفاح، وخزائن سلاح، وألف كبش نطاح في عشرين مراح، وأربعين كلباً نباح، وبساتين وكروم عنب وتين وتفاح، وصوراً وأشباحاً وقناني وأقداحاً وعرائس ملاحاً ومغاني وأفراحاً وهرجاً وصياحاً وعبداً وفلاحاً وأخاه نجاحاً ورفيقه صباحاً، ومعهم سيوف ورماح، وقسي ونشاب وأصدقاء وأحباب وخلان وأصحاب ومجلس للعتاب وندمان للشراب، وطنبور مع رباب، ونايات وقنان مصفوفات، وصبيان ودايات، وأخوات معلمات، وبنات متجليات وجوار مغنيات وجوار حبشيات وثلاث هنديات وأربع بدويات وخمس روميات وست تركيات وسبع عجميات وثماني قفجيات وتسع كرجيات وعشر كلبات، والدجلة الفرات وشبكة وصياد وقداحة وزناد، وإرم ذات العماد، وألف جواد، وقصر شداد بن عاد، وخانات مع حمامات، وقدوم ونجار وخشبة مع مسمار وتاجر مع عطار، وبزار مع بيطار، وعبد أسود بمزمار ومقدم وركبدار ومدن وأمصار ومائة ألف دينار، وبواب وكشدار ورأس نوبة، وعلم دار، والكوفة مع الأنبار وعشرين صندوقاً ملأى قماشاً

ودكان نحاس، وحاصل معاش، وبرجان للحمام وغزة وعسقلان، ومن دمياط إلى أسوان وإيوان كسرى وملك سليمان، ومن كوش نعمان إلى أرض خراسان وبلخ وأصبهان ومن الهند إلى بلاد السودان، وفيه أطال الله عمر مولانا القاضي، قماش وغلائل وعراض وموسى بحد ماض، يحلق ذقن مولانا القاضي، إن حكم أن الجراب ما هو جرابي.

فعند ذلك يا أمير المؤمنين حار القاضي مما سمع ثم قال: ما أراكما إلا شخصين نحسين تلعبان بالقضاة والحكام لأنه ما وصف الواصفون ولا سمع السامعون ما وصفتم في هذا الجراب، ما هذا إلا بحر ليس له قرار.

ثم أمر القاضي بفتح الجراب ففتحه الكردي، فإذا فيه خبز وليمون، وجبن وزيتون، ثم إني رميت الجراب قدام القاضي والكردي، ومضيت إلى حال سبيلي.

فلما سمع أمير المؤمنين ذلك ضحك حتى استلقى على قفاه وقد زال همه وغمه، وأحسن جائزة علي العجمي، وانصرف والله أعلم[1].

الرشيد في منزل إبراهيم الموصلي:

وحكى مسرور الخادم أن الرشيد قصد الركوب في غير عادته، فقلت له: أين تريد يا أمير المؤمنين في هذا الوقت؟ قال: إلى منزل إبراهيم الموصلي.

قال: فمضى حتى انتهى إلى منزل إبراهيم الموصلي، فخرج وتلقاه وقبل حافر حماره، وقال: يا أمير المؤمنين في مثل هذه الساعة تظهر؟ قال: نعم، شوق طرق بي إليك. ثم نزل وجلس في طرف الإيوان وأجلس إبراهيم، فقال له إبراهيم: يا سيدي استنبطنا شيئاً نأكله قبل الشراب.

قال: نعم. فجاء بمطعوم كأنما كان معداً له، فأصاب منه يسيراً، ثم دعا بشراب حمل معه، فقال له الموصلي: يا سيدي أغنيك أم تغنيك إماؤك؟ قال: بل الجواري.

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 84 - 85.

فخرجت جواري إبراهيم فأخذن صدر الإيوان وجانبيه، فقال إبراهيم: أيضربن كلهن أم واحدة واحدة؟ فقال: بل يضربن اثنتان اثنتان، وواحدة واحدة تغني.

قال: فضربن اثنتان وغنت واحدة منهن، فقالت:

إذا دعا باسمها داع يحدثني ... كادت لها مهجتي من حرها تقع
لو أن لي صبرها أو عندها جزعي ... لكنت أعقل ما آتي وما أدع
لا أحمل اللوم فيها، والغرام بها ... ما كلف الله نفساً غير ما تسع

ثم غنت أخرى، فقالت:

طرقتك زائرةٌ فحي خيالها ... بيضاء تخلط بالجمال دلالها
هل يطمسون من السماء نجومها ... بأكفهم أو يطمسون هلالها
شهدت من الأنفال آخر آيةٍ ... فأردتموا بمحالكم إبطالها

ثم غنت أخرى، فقالت:

شطت سعاد وأضحى البين قد أبدا ... وأورثتك سقاماً يصدع الكبدا
فما احتيالك في جد الرحيل بهم ... وخلفوك غداة البين، منفردا
لا أستطيع لهم صبراً ولا جلداً ... ولا تزال أحاديثي بهم جددا

قال: فقام حتى وصل إلى صدر الإيوان، وأخذ بجانبيه والرشيد يسمع ولا ينصت لشيء من غنائهن، إلى أن غنته صبية من صدر الإيوان من حاشية الصفة هذين البيتين لأبي نواس:

يا موري الزند قد أعيت قوادحه ... أقبس بما شئت من قلبي بمقباس
ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم ... إذا نظرت فلم أنظرك في الناس

فطرب الرشيد لغنائهما واستعاد الصوت مراراً وشرب أرطالاً، وسأل الجارية عن صانعه، فأمسكت فاستدناها، فتقاعست، فأمر بها، فأقبلت بين يديه، فأخبرته بشيء أسرته إليه، فدعا بحماره فركبه، ثم التفت إلى إبراهيم الموصلي، فقال له: ما ضرك أن تكون خليفة.

فكادت روحه تخرج حتى دعاه بعد ذلك وأدناه. قال: وكان الذي أخبرته به سراً أن الصنعة في الصوت لأخته علية بنت المهدي، وكانت الجارية لها، فوجهتها إلى إبراهيم الموصلي يطارحها، ومن قول أبي نواس:

دع عنك لومي فإن اللومَ إغراءُ ... وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها حجر مسته سراء
من كف ذات حر في زي ذي ذكر ... لها محبان لواطٌ وزناءُ
قامت بإبريقها، والليل معتكرٌ ... فلاح من وجهها في البيت لألاء
أرسلت من فم الإبريق صافية ... كأنما أخذُها بالعين إغفاءُ
رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافةً وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها ... حتى تولد أنوارٌ وأضواءُ
دارت على فتية دان الزمان لهم ... فما يُصيبهمو إلا بما شاؤوا
فقل لمن يدعي في العلم فلسفةً ... حفظت شيئاً وغاب عنك أشياء

وقال الشاعر:

كعصفورةٍ في كف طفلٍ يهينها ... تذوق مرار الموت، والطفل يلعب
فلا الطفلُ ذو عقل يرقُّ لحالها ... ولا الطيرُ مطلوق الجناحين

: يهـــــــــــــــــــــرب [1]

يا أحمق:

قال المأمون تدرون ما جرى بينى وبين أمير المؤمنين هارون الرشيد كان لي إليه ذنب فدخلت مسلمًا عليه فقال: اغرب يا أحمق فانصرفت مغضبًا ولم أدخل إليه أيامًا فكتب إلي رقعة يقول:

ليت شعرى وقد تمادى بك الهجر أمنك التفريط أم كان منى إن تكن خنتنا فعنك عفا الله وان كنت خنتكم فاعف عنى فسرت إليه فقال: إن كان الذنب لنا فقد استغفرناك وان كان لك فقد غفرناه فقلت له: قلت لي يا أحمق ولو قلت لي: يا أرعن كان أسهل علي فقال ما الفرق بينهما؟ قلت له الرعونة: تتولد عن النساء فتلحق الرجل من طول صحبتهن فإذا فارقهن وصاحب فحول الرجال زالت عنه وأما الحمق فإنه غريزة [2].

هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله:

حدث عبد الرحمن بن مسهر قال ولاني القاضي أبو يوسف القضاء بجبل وبلغني أن الرشيد منحدر إلى البصرة فسألت أهل جبل أن يثنوا علي فوعدوني أن يفعلوا ذلك وتفرقوا فلما آيسوني من أنفسهم سرحت لحيتي وخرجت فوقفت له فوافى وأبو يوسف في الحراقة فقلت: يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضي جبل قد عدل فينا وفعل وصنع وجعلت أثني على نفسي فرآني أبو يوسف فطأطأ رأسه وضحك فقال هارون: مم تضحك؟ فقال: إن المثني على نفسه هو القاضي فضحك هارون حتى فحص برجليه وقال: هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله فعزلني [3].

والله لقد كنت أسوأ الناس حالا:

وعن محمد بن المبرد عن الحسن بن رجاء أن الرشيد لما غضب على ثمامة دفعة إلى سلام الأبرش وأمره أن يضيق عليه وأن يدخله بيتا ويطين

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 131 - 132.
(2) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص24.
(3) المصدر السابق، ص101 - 102.

عليه ويترك فيه ثقبًا ففعل دون ذلك وكان يدس إليه الطعام فجلس سلام عشية وهو يقرأ في المصحف فقرأ: ويل يومئذ للمكذبون فقال ثمامة: إنما هو المكذبين، وجعل يشرح ويقول المكذبون هم الرسل والمكذبين هم الكفار، فقال: قد قيل لي: إنك زنديق ولم أقبل ثم ضيق عليه أشد الضيق.

قال ثم رضي الرشيد عن ثمامة، فجالسه فقال: أخبروني عن أسوأ الناس حالا، فقال: كل واحد شيئا قال ثمامة وبلغ القول إلي فقلت يا أمير المؤمنين عاقل يجري عليه حكم جاهل فتبينت الغضب في وجهه فقلت: يا أمير المؤمنين ما أحسبني وقعت بحيث أردت قال: لا والله فانشرح فحدثته بحديث سلام فضحك حتى استلقى وقال: صدقت والله لقد كنت أسوأ الناس حالا[1].

جمال الوجه فتنةٌ لعباد الله:

قال حليّلان المغنّي: دخلت دار هارون الرّشيد فإذا أنا بجاريةٍ خماسيّةٍ، أحسن النّاس وجهاً، على يدها سطران مكتوبان بالغالية، فقرأتهما فإذا هما ممّا عمل في طران الله، فتنة لعباد الله وقال بعضهم: سمعت يحيى بن سفيان يقول: رأيت بمصر جاريةً بيعت بألف دينارٍ، فما رأيت وجهاً قط أحسن من وجهها صلّى الله عليها. قال: فقلت له يا أبا زكريّا، مثلك يقول هذا مع ورعك وفقهك؟ فقال: وما تنكر عليّ من ذلك؟ صلّى الله عليها وعلى كلّ مليحٍ: يا بن أخي الصّلاة رحمة[2].

على العهد باقيةٌ:

قال الأصمعي: قال لي الرّشيد: امض إلى بادية البصرة فخذ من تحف كلامهم وطرف حديثهم. فانحدرت، فنزلت على صديقٍ لي بالبصرة، ثمّ بكّرت أنا وهو على المقابر، فلمّا صرت إليها إذا بجاريةٍ نادى إلينا ريح عطرها قبل الدّنوّ منها، عليها ثيابٌ مصبغاتٌ وحلى، وهي تبكي أحرّ بكاء. فقلت: يا جارية ما شأنك؟ فأنشأت تقول:

فإن تسألاني فيم حزني؟ فإنني :: رهينة هذا القبر يا فتيان.

(1) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص151، 152.
(2) ابن الجوزي، أخبار النساء،ص4.

أَهابـك إجـلالا، وإن كنـت فـي : مخافـة يـومٍ أن يسـوءك مكـاني
الثّـــــــــــــــــرى، :: كما كنت أستحييك حين تراني
وإنّـي لأستحييك، والتّرب بيننـا، :

فقلنا لهاك ما رأينا أكثر من التّفاوت بين زيّك وحزنك فأخبري بشأنك؟ فأنشأت تقول:

::
يـا صـحب القبـر، يـا مـن كـان : حيّاً، ويكثر في الدّنيا مواساتي،
يؤنســـــــــــــــــني :: كأنّني لست من أهل المصيبات؛
أزور قبرك في حليّ وفي حللٍ، : مشـــهورة الـــزّيّ تبكـــي بـــين
فمن رآني، رأى عبرىً مفجعةً :: أمـــــــــــــــــــواتي.
:

فقلنا لها: وما الرّجل منك قالت: بعلي، وكان يجب أن يراني في مثل هذا الزّيّ، فآليت على نفسي أن لا أغشى قبره إلاّ في مثل هذا الزّيّ لأنّه كان يحبّه أيّام حياته، وأنكرتماه أنتما عليّ.

قال الأصمعي: فسألتها عن خبرها ومنزلها. وأتيت الرّشيد فحدّثته بما سمعت ورأيت، حتّى حدّثته حديث الجّارية. فقال: لا بدّ أن ترجع حتّى تخطبها إليّ من وليّها، وتحملها إليّ، ولا يكون من ذلك بد. ووجّه معي خادماً ومالاً كثيراً. فرجعت إلى قومها فأخبرتهم الخبر، فأجابوا وزوّجوها من أمير المؤمنين وحملوها معنا وهي لا تعلم. فلمّا صرنا إلى المدائن نما إليها الخبر، فشهقت شهقةً فماتت، فدفنّاها هنالك. وسرت إلى الرّشيد فأخبرته الخبر، فما ذكرها وقتاً من الأوقات إلاّ بكى أسفاً عليها[1].

زوجة الرّشيد ومخارق:

قال إسحاق بن إبراهيم: كان مخارق يهوى البهار جارية أمّ جعفر وشغف بها حتّى أفضى غايته في حبّها. فبينما هو منصرفٌ ذات ليلةٍ من دار المأمون في دجلة، وقد عمل الشّراب فيه، وأمّ جعفر جالسة في دارها على دجلة إذ رفع عقيرته يغنّي شعر عبّاس بن الأحنف:

إن يمنعوني ممرّي قرب داركم، :: فسوف أنظر من بعدٍ إلى الدّار

(1) ابن الجوزي، أخبار النساء،ص37.

ما ضرّ جيرانكم، والله يكلؤهم، : لـولا شـقائي إقبـالي وإدبـاري
لا يقـدرون علـى منعـي، وإن :: إذا مـررت، وتسـليمي بإجهـاري
جهـــــــــــــــــدوا :

فسمعت أمّ جعفر صوته فأمرت خدّامها فصاحوا بملاحة فقدم وصعد إليها، فدعت له بكرسيٍّ وصينيّةٍ فيها نبيذٌ فشرب، وخلعت عليه وقالت لجواريها: أضربن معه. فكان أوّل ما تغنّى به:

أغيـب عنـك بـودٍّ لا يغيـره : نأي المحلّ ولا صرفٌ من الزّمن
فـإن أعش فلعلّ الـدّهر يجمعنـا :: وإن أمت فبطولِ الشّوق والحزن
قد حسّن في عينـيّ مـا صـنعت : حتّى أرى حسناً ما ليس بالحسن

قال، فاندفعت البهار تباريه في الصّوت وتغنّي:

تعتـلّ بالشّـغل عنّـا لا تكلّمنـا : والشّغل للقلب ليس الشّغل للبدن

فضحكت أمّ جعفر، وقالت، ما رأيت ولا سمعت قط بأحسن من هذا. ووهبت له الجّارية فأخذها وانصرف[1].

أخذ الجّارية والعتيدة والدّنانير:

قال إبراهيم بن الخطيب: حدّثني مخارق قال: كنت عند الرّشيد فلمّا أراد الانصراف قال لي: يا مخارق بكّر عليّ. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. فلمّا أصبحت بكّرت أريد ما ذكره، فإذا جارية راكبة وهي أحسن النّاس عينين في النّقاب، فنظرت إليها، ونظرت إليّ، فلم أملك نفسي وتعشّقتها وتبعتها حتّى دخلت منزل المعبدي الهاشمي، فقلت لغلماني: إذا كان المغرب فصيروا إليّ، فإذا كنت في الدّنيا خرجت إليكم، وإذا كنت متّ فقد قضيت وطراً. قال: واقتحمت ودخلت الدّار، فإذا جماعةٌ مجتمعون وقد أحضروا طعاماً فأكلت معهم، وأحضر الشّراب، وغنّت الجّارية فإذا هي أحذق النّاس وأطيبهم، فغنّيت، فقال المعبدي: ما أحسنه وأبهاه، فمن هو؟ فقال له القوم: ما نعرفه. فقال: ما أظرف هذا يدخل منزلي بغير أمري

(1) ابن الجوزي، أخبار النساء،ص54.

أبغوا إليّ صاحب الشّرطة. وكلّ ذلك بمسمعي، قالت الجّارية: يا مولاي لا تفعل، لعلّ له عذراً. فبحياتي هب لي جرمه فقد رحمته، وأحسب أنّ هذه صناعته. قال: فطابت نفسي فلمّا خرجت قال لي: يا فتى تغنّي؟ فقلت: نعم. فغنّيت، فطرب القوم وقال المعبدي: إن كان في الدّنيا مخارق فأنت هو! قلت: نعم أنا مخارق وحدّثته حديثي والسّبب في دخول منزله، فسرّ وفرح ودعا بدواةٍ وقرطاسٍ وأقبل يكتب ويعود إليه الجواب، ثمّ وزن مالاً ووجّه به.

فلمّا كان بالعشيّ قال: يا غلام هات تلك العتيدة. فأحضر عتيدةً مملوءةً طيباً، وقال: هات ذلك التّخت. فأحضره إيّاه، فقال: أتدري ما نحن فيه: قلت: لا. قال: قد اشتريت لك الجّارية بأربعين ألف دينار، وهذه عتيدةٌ فيها طيب، وتخت ثياب. فأخذت بيدها وانصرفت بها عروساً، فلمّا أصبحت بكّرت على الرّشيد فقال لي: يا بن الفاعلة أين كنت؟ فحدّثته الحديث فسرّ به، وقال: ما توهّمت أنّ في أهلي مثل هذا. وأمر من ساعته أن يحمل إليه أربعون ألف دينار[1].

دخل وأجبر على تركها:

وروي عن يحيى بن خالد بن برمك قال: كنت أهوى جاريتي دنانير، وهي لمولاتها زهراء، فلمّا وضع المهدي الرّشيد في حجري اشتريتها؛ فلم أسرّ بشيءٍ من الدّنيا مثل سروري بها وبملكها، فما لبثت إلاّ يسيراً حتّى وجّه المهدي ابنه الرّشيد غازياً إلى بلد الرّوم، فخرجت معه، فعظم على فراقها، فأقبلت لا أتهنّأ بطعام ولا شرابٍ صبابةً بها وذكراً لها. فأنا ليلةً في مضربي، وقد أصابني بردٌ شديدٌ وثلجٌ كثيرٌ، وأنا أتقلّب على فراشي أذكر الجّارية، إذ سمعت غناءً خفيّاً وصوت عودٍ بالقرب منّي. فأنكرت ذلك وجلست على فراشي فأشجاني الصّوت من غير أن أفهم حتّى أبكاني. فقمت، ولم أوقظ أحداً من العسكر، حتّى انتهيت إلى خيمةٍ صغيرةٍ من خيام الجند، فإذا فيها سراجٌ، فدنوت منها، فإذا فتىً جالسٌ، وإذا بين يديه ركوةٌ فيها شرابٌ وفي حجره عودٌ يضرب عليه ويتغنّى بهذا الصّوت:

(1) ابن الجوزي، أخبار النساء،ص55.

ألا يا لقومي أطلقوا غلّ مرتهن :: ومنـوا علـى مستشـعر الهـمّ والحـزن.
ألـم ترهـا بيضـاء، روداً شـبابها : لطيفةٌ طيّ البطن كالشّادن الأغن

قال: فكلّما غنّى بيتاً بكى وتناول قدحاً فصبّ فيه من ذلك الشّراب، وشرب، ثمّ يعود إلى مثل ذلك.

قال: فأقمت طويلاً أرى ما يفعل وأبكي لبكائه، ثمّ سلّمت فردّ السّلام، واستأذنت فأذن لي فدخلت، فلمّا رآني أجلّني وأوسع لي. فقلت: يا فتى خبّرني بخبرك، وما أنت فيه، وما سبب هذا البكاء؟ قال: أنا فتًى من الأبناء، لي ابنة عمٍّ قد نشأنا جميعاً فعلقتها وعلقتني، ثمّ بلغنا فحجبت عنّي، فسألت عمّي ليزوّجنيها فأجاب، فمكثت حيناً أحتال لمهرها حتّى تهيّأ فأدّيته، فدخلت بها، فلمّا أن كان يوم سابعها ضرب عليّ البعث وخرجت وبي من الشّوق إليها ما لا أجده، فحملت معي هذا العود، فإذا أصبت شراباً في بعض هذا القرى أخذت منه شيئاً، ثمّ أفعل ما ترى تذكاراً إليها.

فقلت: فهل تعرفني؟ فأنكرني، فما أدري أتعمّداً أم حقيقةً.

قال: فقلت له: أنا يحيى بن خالد، فلمّا قلت له ذلك نهض قائماً. فقلت: اجلس، فإذا كان غداً فألقني، فهذا مضربي بالقرب منك، فإنّي أصير منك إلى ما تحب.

قال: ووافق ذلك رسولاً قد هيّأناه إلى المدينة، فما كان أسرع شيءٍ حتّى دنا الصّبح وتهيّأ النّاس للرّحيل، فأوّل من لقيني ذلك الفتى، فأثبت وجهه وقلت له: من أنت، وفي قيادة من أنت؟ فخبّرني، فمضيت حتّى دخلت على الرّشيد ومعي المؤتمرات، فكنت آمرها على سمعة من عنوانٍ يكون له فيها، فقلت وفتىً من الأنباء فلان بن فلان يطلق سراحه ويعطى عشرة آلاف درهمٍ معونةً له ويصحب فلاناً الرّسول. ففعل ذلك وانصرف إلى أهله[1].

زوّجها الرّشيد وأمر لها بالمال:

قال إبراهيم بن المهدي: حجت مع الرّشيد، فلمّا كنّا بالمدينة خرجت

(1) ابن الجوزي، أخبار النساء،ص61.

إلى العقيق أسير على دابّتي وليس معي غلامٌ، فوقفت على بئر عروة وعليها جاريةٌ سوداء وفي يدها دلوٌ تملأ قربةً لها، فقلت: يا هذه اسقني. فنظرت إليّ وقالت: أنا مشغولةٌ عنك. فقرعت قربوسي بمقرعتي موقّعاً بها على القربوس، وغنّيت. فلمّا سمعت ذلك منّي ملأت دلوها وبادرت به إليّ وقالت: اشرب يا عمّ فشربت، فقالت: بالله يا عم أين أهلك أحمل إليهم هذه القربة؟ فقلت: بين يدي. فمضت معي حتّى أتت المضرب فلمّا رأت الولدان والخدم ذعرت، فقلت لها: لا بأس عليك. وأخذت الماء وأمرت من وصله، فقال لي الغلمان: قد جاء رسول أمير المؤمنين مراراً فمضيت إليه، فقال لي: أين كنت؟ فأخبرته بخبر الجّارية، فأمر بطلبها، فأتي بها، فأمر بابتياعها من مولاها، وأعتقها، وقال لها: هل من تودّينه يودّك وتحبّينه يحبّك؟ قالت: نعم عبدٌ لآل فلان. فأمر بابتياعه وأعتقه ثمّ زوّجها إيّاه، وأمر لهما بمالٍ.

أرجعه من اليمن وزوّجه من يحب:

حجّ الرّشيد سنة إحدى عشرة من خلافته، فلمّا نزل بالكوفة، بعد قفوله من الحج، دعا إسماعيل بن صبيح فقال: إنّي أردت الليلة أن أطوف في محال الكوفة وقبائلها فتأهبّ لذلك، قلت: نعم. فلمّا مضى ثلث الليل قام وقمت معه، وركب حماراً وركبت أنا آخر، ومعي خادمٌ ومعه خادمٌ من خاصّة خدمه. فلم نزل نطوف المحال والقبائل حتّى انتهينا إلى النّخع فسمعنا كلاماً. فقال الرّشيد لأحد الخادمين: أدن من الباب وتعرّف ما هذا الكلام؟ فتطلّع من موضعٍ في الباب فرأى نسوةً يغزلن حول مصباحٍ وجاريةٍ منهنّ تنشد شعراً وتردّد أبياته وتتبّع كلّ بيتٍ برنةٍ وأنّةٍ، وتبدي زفرةً: وتفيض عبرةً، والنّسوان اللواتي معها يبكين لبكائها فحفظ الخادم من شعرها هذه الأبيات:

هل أرى وجه حبيبٍ شفني :: بعد فقدانيه، أفراط الجزع

قد برى شوقي إليه أعظمي، وبلى قلبي هواه وفزع.

ليت دهراً مرّ، والقلب به :: جذلٌ، والعيش حلوٌ قد رجع
وعفت آثاره منه فيا : ليت شعري، ما به الدّهر صنع؟
قد تمسّكت على وجدي به :: بجميل الصّبر، لو كان نفع

⋮
⋮
⋮

فقال للخادمين: اعرفا الموضع إلى غد. ورجعنا إلى البصرة، فلمّا طلع الفجر وفرغ من صلاته وتسبيحه، قال للخادمين: أمضيا إلى الدّار فإن كان فيها رجلٌ من وجوه الحيّ فجيئا به حتّى أسأله عمّا أريده. فسار الخادمان إلى الدّار فلم يجدا فيها رجلاً، فدخلا إلى مسجد الحيّ فقالا لأهله: أمير المؤمنين يقرأ عليكم السّلام ويقول لكم: أحببت أن يجيئني منكم أربعةً أسألهم عن أمرٍ. قالوا: سمعاً وطاعةً. وقاموا معهما فدخلوا على الرّشيد، فقرّبهم وأدناهم، وقال لهم: طفت البارحة في بلدكم تفقّداً لأحوالكم، فسمعت في دارٍ من دياركم امرأةً تنشد شعراً وتبكي. وقد خفت أن تكون مغيبةً، وأنّ نزاع النّفس أهون من نزاع الشّوق، وقطع الأوصال أهون من قطع الوصال، وقد أحببت أن أعرف خبرها منكم.

قالوا: يا أمير المؤمنين، هذه البارعة بنت عوف بن سهم كان أبوها زوّجها ابن عمٍّ لها يقال له سليمان بن همام على عشرة آلاف درهمٍ، فهلك أبواهما من قبل أن يجتمعا، فاكتتب زوجها مع عامله إلى اليمن لقلّة ذات يده، وخرج منذ خمس سنين، فحزنت عليه، وطال شوقها إليه، فهي تنشد الأشعار فيه وتستريح إلى ذكره. فأمر الرّشيد من ساعته أن يكتب إلى عامله باليمن في حمل سليمان بن همام على البريد إلى حضرته إلى بغداد.

فما مضت أيّامٌ بعد وصول الرّشيد حتّى دخل عليه إسماعيل بن صبيح، فقال: يا أمير المؤمنين قد وصل النّخعي الذي أمرت بحمله إليك. فأمر بإدخاله عليه، فنظر إلى رجلٍ معتدل القامة، ظاهر الوسامة، ذرب اللسان، حسن البيان، فقال: أنت سليمان بن همام؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين. قال له: أقصص عليّ خبرك! فقصّ عليه الخبر فوجده مطابقاً لمّا خبّره به الأربعة النّفر، فأمر له بعشرين ألف درهمٍ، فأخذ ذلك من يومه ورحل إلى الكوفة فدخل بأهله وكان الرّشيد يتعاهده ببرّه[1].

(1) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص 79.

ما هذه؟

وبلغنا عن الرشيد أنه رأى يوماً في داره حزمة خيزران فقال لوزيره الفضل بن الربيع ما هذه؟ فقال عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يرد أن يقول الخيزران لموافقته اسم أم الرشيد[1].

ولكن هكذا قال لي أبو يوسف:

كان عند الرشيد جارية من جواريه وبحضرته عقد جوهر فأخذ يقلبه ففقده فاتهمها فسأله عن ذلك فأنكرت فحلف بالطلاق والعتاق والحج لتصدقنه فأقامت على الإنكار وهو متهم لها وخاف أن يكون قد حنث في يمينه فاستدعى أبا يوسف وقص عليه القصة فقال أبو يوسف: بتخليني مع الجارية وخادم معنا حتى أخرجك من يمينك ففعل ذلك فقال لها أبو يوسف: إذا سألك أمير المؤمنين عن العقل فأنكريه فإذا أعاد عليك السؤال فقولي قد أخذته فإذا أعاد عليك الثالثة فأنكري وخرج فقال للخادم: لا تقل لأمير المؤمنين ما جرى وقال للرشيد: سلها يا أمير المؤمنين ثلاث دفعات متواليات عن العقد فإنها تصدقك فدخل الرشيد فسألها فأنكرت أول مرة وسألها الثانية فقالت: نعم قد أخذته فقال: أي شيء تقولين؟ فقالت: والله ما أخذته، ولكن هكذا قال لي أبو يوسف: فخرج إليه، فقال: ما هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، قد خرجت من يمينك لأنها أخبرتك أنها قد أخذته وأخبرتك أنها لم تأخذه فلا يخلو أن تكون صادقة في أحد القولين وقد خرجت أنت من يمينك فسر ووصل أبو يوسف فلما كان بعد مدة وجد العقد [2].

هذه أجرة لوصفتك فإن نفعتنا زدناك:

قال ابن خلف: حدثني بعض أصحابنا، قال: بلغني أن الرشيد خرج يوماً متنزهاً وانفرد عن عسكره والفضل بن الربيع خلفه، فإذا هو بشيخ قد

(1) ابن الجوزي، الأذكياء، ص22.
(2) ابن الجوزي، الأذكياء، ص36.

ركب حماراً له وفي يده لجام كأنه مبعر محشو فنظر إليه، فإذا هو رطب العينين فغمز الفضل عليه فقال له الفضل: أين تريد؟ قال: حائطاً لي. قال: هل لك أن أدلك على شيء تداوي به عينيك فتذهب هذه الرطوبة؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك قال له خذ عيدان الهواء، وغبار الماء وورق الكماة فصيره في قشر جوزة واكتحل به، فإنه يذهب عنك ما تجد قال فاتكأ على قربوسة فضرط ضرطة طويلة، ثم قال: تأخذ هذه أجرة لوصفتك فإن نفعتنا زدناك قال: فاستضحك الرشيد حتى كاد أن يسقط عن ظهر دابته [1].

ما سلم الظبي على حسنه:

قال الأصمعي كنت عند أمير المؤمنين الرشيد إذ دخل رجل ومعه جارية للبيع فتأملها الرشيد ثم قال: خذ جاريتك فلولا كلف في وجهها وخنس في أنفها لاشتريتها فانطلق بها فلما بلغت الستر قالت: يا أمير المؤمنين، اردني إليك أنشدك بيتين حضراني فردها فأنشأت تقول:

ما سلم الظبي على حسنه ∴ كلا ولا البدر الذي يوصف
الظبي فيه خنس بين ∴ والبدر فيه كلف يعرف

فأعجبته بلاغتها فاشتراها، وقرب منزلها، وكانت أحظى جواريه عنده[2].

يا أحسن الناس خلقاً وخلقاً؟

عن العباس بن رستم قال: دخلت أنا وأبان اللاحقي على جارية الناطفي في يوم صائف، وهي جالسة في الخيش فقال لها أبان:

لذة عيش الصيف في الخيش فقالت: لا في لقاء الجيش بالجيش.

فقلت لها معرضاً لها: ما أحسن ما قال جرير:

ظللت أراعي صاحبي تجلداً ∴ وقد علقتني من هواك علوق

فقالت غير متوقفة:

(1) المصدر السابق، ص64.
(2) ابن الجوزي، الأذكياء، ص103.

إذا عقل الخوف اللسان تكلمت ⁝ بأسراره عين عليه نطوق

ثم عرضت على الرشيد، فدخلت عليه تتبختر، فقال لها: أتحبين أن أشتريك؟ قالت: ولم لا أحب ذلك يا أحسن الناس خلقاً وخلقاً؟ فقال لها: أما الخلق فظاهر فما علمك بالخلق؟ قالت: رأيت شرارة، قد طاحت على ثوبك من المجمر، لما جاء الخادم بالبخور إليك فسقطت على ثوبك فأحرقته، فو الله ما قطبت لها وجهاً، ولا راجعت من جناها حرفاً! فقال لها: والله لولا أن العيون قد ابتذلتك إبتذالاً، مشتركاً كبيراً، لاشتريتك ولكنه لا يصح للخليفة، من هذه سبيله! وردها إلى مولاها، فاشتراها طاهر بن الحسين بعد ذلك، وجعلها على خزانة طيبه، فقالت: عرضتني للغيرة! فاعفني من ذلك، واجعل إلي كسوتك، ففعل[1].

من زهد رجال الحديث:

قال محمد بن المنذر الكندي: وكان جاراً لعبد الله بن إدريس قال: حج الرشيد ومعه الأمين والمأمون فدخل الكوفة فقال لأبي يوسف: قل للمحدثين يأتونا يحدثونا، فلم يتخلف عنه من شيوخ الكوفة إلا اثنان عبد الله بن إدريس وعيسى بن يونس، فركب الأمين والمأمون على عبد الله بن إدريس فحدثهما بمائة حديث، فقال المأمون لعبد الله: يا عم! أتأذن لي أن أعيدها عليك ومن حفظي؟ قال: افعل، فأعادها كما سمعها فكان ابن إدريس من أهل الحفظ يقول: لولا أنني أخشى أن ينفلت مني القرآن ما رويت العلم، يعجب عبد الله من حفظ المأمون، وقال المأمون: يا عم! إلى جنب مسجدك دارٌ إن أذنت لنا اشتريناها ووسعنا بها المسجد، فقال: ما بي إلى هذا حاجة قد أجزأ من كان قبلي وهو يجزئني، فنظر إلى قرح في ذراع الشيخ فقال: إن معنا متطبين وأدوية، أتأذن لي أن يجيئك من يعالجك؟ قال: لا، قد ظهر بي مثل هذا وبرأ، فأمر له بمال وجائزة فأبى أن يقبلها وصار إلى عيسى بن يونس فحدثهما، فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يقبلها فظن أنه استقلها، فأمر له بعشرين ألفاً، فقال عيسى: لا ولا إهليلجة ولا شربة ماء على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(1) أبو الفرج الأصبهاني، الإماء الشواعر، 3/1.

ولو ملأت لي هذا المسجد ذهباً إلى السقف، فانصرفا من عنده[1].

وكيف لا يكون ذلك؟

حدثنا محمد بن القاسم الأنباري، قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو محمد ابن أبي سعد، قال: حدثنا عبد الله بن الربيع، قال: حدثني بعض أصحابنا، قال: صنع الرشيد ذات ليلة بيتاً واضطرب عليه الثاني، فقال: علي بالعباس ابن الأحنف، فأتي به في جوف على حال من الذعر عظيمة، فقال له الرشيد: لا ترع، قال: وكيف لا يكون ذلك؟ وقد طرقت في منزلي في مثل هذا الوقت فلم أخرج من منزلي إلا والراعبة فيه، وأهلي لا يشكون في قتلي، فقال: إنما أحضرتُك لبيت قلته صعب علي أن أشفعه بمثله، قال: ما هو؟ قال:

جنانٌ قد رأيناها ⋮ فلم نر مثلها بشراً

فقال العباس:

يزيدك وجهها حسناً ⋮ إذا ما زدته نظراً
إذا ما الليل جن عليـ ⋮ ـك بالإظلام واعتكرا
ودج فلم تر قمرا ⋮ فأبرزها ترى قمرا

فقال الرشيد: أقل ما يجب علينا أن ندفع إليك دينك إذ نزل بك هذا الروع بعيالك منا. فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه[2].

من مخارج أبي يوسف الفقيهة:

قال حماد بن إسحاق الموصلي، قال: حدثني أبي، قال: حدثني بشر بن الوليد وسألته من أين جاء؟ قال: كنت عند أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي، وكنا في حديث طريف، قال: فقلت له: حدثني به قال: قال لي يعقوب: بينا أنا البارحة قد أويت إلى فراشي، فإذا داقٌّ يدق الباب دقاً شديداً، فأخذت علي إزاري وخرجت، فإذا هرثمة بن أعين فسلمت عليه

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 15/1.
(2) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 45/1.

فقال: أجب أمير المؤمنين، قلت: يا أبا حاتم! لي حرمة وهذا وقت كما ترى، ولمت آمن أن يكون أمير المؤمنين دعاني لأمر من الأمور، فإنك أمكنك أن تدفع بذلك إلى غدٍ فلعله أن يحدث له رأي، فقال: ما إلى ذلك سبيل، قلت: فما كيف كان السبب؟ قال: خرج إلي مسرور الخادم فأمرني أن آتي أمير المؤمنين بك، قلت: تأذن لي أن أصب علي ماء وأتحنط، فإن كان أمر من الأمور كنت قد أجدت وأحكمت أمري، وإن رزق الله تعالى العافية فلن يضر، فأذن لي فدخلت فلبست ثياباً جدداً وتطيبتُ بما أمكن من الطيب، ثم خرجنا حتى أتينا دار أمير المؤمنين الرشيد، فإذا مسرور واقف فقال له هرثمة: قد جئت به، فقلت لمسرور: يا أبا هاشم! خدمتي وحرمتي وميلي، وهذا وقتٌ ضيق، لِمَ طلبني أمير المؤمنين؟ قال: لا، قلت: فمن عنده؟ قال: عيسى بن جعفر، قلت:ومن؟ قال: ما عنده ثالث، قال: مر، فإذا صرت في الصحن فأته في الرواق وهو ذاك جالسٌ، فحرك رجلك بالأرض فإنه سيسألك، فقل له: أنا، فجئت ففعلت، قال: من هذا؟ قلت: يعقوب، قال: ادخل، فدخلت فإذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر، فسلمت فرد علي السلام، وقال: أظننا روعناك؟ قلت: إي والله وكذاك من خلفي، قال: اجلس فجلست حتى سكن روعي، ثم التفت إلي فقال: يا يعقوب تدري لم دعوتك؟ قلت: لا. قال: دعوتك لأشهدك على هذا، إن عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع، وسألته أن يبيعها فأبى، ووالله لئن لم يفعل لأقتلنه، قال: فالتفتُّ إلى عيسى، فقلت: وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة؟ قال: فقال: عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي؟ قلت: وما في هذا الجواب؟ قال: إن علي يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك ألا أبيع هذه الجارية ولا أهبها، فالتفت الرشيد فقال: هل له في ذلك مخرج؟ قلت: نعم، يهب لك نصفها ويبيعك نصفها، فيكون لم يهب ولم يبع، قال عيسى: ويجوز ذلك؟ قلت:نعم، قال: فأشهدك أني قد وهبت له نصفها وبعته النصف الباقي بمائة ألف دينار، فقال: الجارية، فأتي بالجارية وبالمال، فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها، قال: يا يعقوب؟ بقيت واحدة، قلت: وما هي؟ قال: هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ، ووالله لئن لم أبت معها ليلتي إني لأظن نفسي ستخرج،

فقلت: يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها فإن الحرة لا تستبرأ، قال: فإني قد عتقتها فمن يزوجنيها؟ قلت: أنا، قال: فافعل، فدعا بمسرور الخادم وحسين فخطبت فحمدت الله وزوجته على عشرين ألف دينار، ودعا بالمال ودفعه إليها، ثم قال: يا يعقوب؟ انصرف، ورفع رأسه إلى مسرور فقال: يا مسرور؟ قال لبيك يا أمير المؤمنين، قال: احمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً، فحمل ذلك معي. قال: فقال بشر بن الوليد: فالتفت إلي يعقوب فقال: هل رأيت بأساً فيما فعلت؟ قلت: لا، قال: فخذ منها حقك، قال: وما حقي؟ قال: العشر. فشكرته ودعوت له، ذهبت لأقوم فإذا بعجوز قد دخلت فقالت: يا أبا يوسف؟ ابنتك تقرئك السلام وتقول لك والله ما وصل إلي في ليلتي هذه من أمير المؤمنين سوى المهر الذي قد عرفته، وقد حملت إليك النصف منه وخلفت الباقي لما أحتاج إليه فقال: رديه فوالله لا قبلتها، أخرجتها من الرق وزوجتها أمير المؤمنين وترضى لي بهذا، فلم نزل نطلب إليه أنا وعمتي حتى قبلها وأمر لي بألف دينار[1].

خبر مقدم وكيع وابن إدريس وحفص على الرشيد:

قال أبو جعفر الضرير الكلبي، حدثني شيخ على باب بعض المحدثين، قال: سألت وكيعاً عن مقدمه وهو وابن إدريس وحفص على هارون الرشيد، فقال لي: ما سألني عن هذا أحد قبلك، قدمنا على هارون أنا وعبد الله بن إدريس وحفص بن غياث، فأقعدنا بين السريرين فكان أول من دعا به أنا، فقال لي هارون: يا وكيع! فقلت: لبيك يا أمير المؤمنين قال: إن أهل بلدك طلبوا مني قاضياً وسموك لي فيمن سموا، وقد رأيت أن أشركك في أمانتي وصالح ما أدخل فيه من أمر هذه الأمة، فخذ عهدك وامض. فقلت: يا أمير المؤمنين! وإحدى عيني ذاهبة والأخرى ضعيفة؟ فقال هارون: اللهم غفراً، خذ عهدك أيها الرجل وامض، فقلت: يا أمير المؤمنين والله لئن كنت صادقاً إنه لا ينبغي أن تقبل مني وإن كنت كاذباً فلا ينبغي أن تولي القضاء كذاباً، فقال: اخرج، فخرجت، فدخل ابن إدريس فكأن هارون قد وسم له من ابن إدريس واسم، يعني خشونة جانبه، فدخل

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 70/1.

فسمعنا صوت ركبتيه على الأرض حين برك، وما سمعناه يسلم إلا سلاماً خفياً، فقال له هارون: أتدري لم دعوتك؟ قال: لا، قال: إن أهل بلدك طلبوا مني قاضياً وأنهم سموك لي فيمن سموا، وقد رأيت أن أشركك في أمانتي وأدخلك في صالح ما أدخل فيه من أمر هذه الأمة، فخذ عهدك وامض، فقال له ابن إدريس: لست أصلح للقضاء، فنكث هارون بإصبعه وقال له: وددت أني لم أكن مثلتك، قال له ابن إدريس: وأنا وددت أني لم أكن رأيتك، فخرج ثم دخل حفص بن غياث، فقال له كما قال لنا، فقبل عهده وخرج، فأتانا خادم معه ثلاثة أكياس في كل كيس خمسة آلاف دينار، فقال: إن أمير المؤمنين يقرئكم السلام ويقول لكم: قد لزمتكم مؤونة في شخوصكم فاستعينوا بهذه في سفرتكم، قال وكيع: أقرئ أمير المؤمنين السلام وقل: قد وقعت مني بحيث يحب أمير المؤمنين وأنا عنها مستغن، وفي رعية أمير المؤمنين من هو أحوج إليها مني، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصرفها إلى من أحب، وأما ابن إدريس فصاح به: مر من ها هنا وقبلها حفص، وخرجت الرقعة إلى ابن إدريس من بيننا، عافانا الله وإياك سألناك أن تدخل في أعمالنا فلم تفعل، ووصلناك من أموالنا فلم تقبل، فإذا جاءك ابني المأمون فحدثه إن شاء الله، فقال للرسول: إذا جاء مع الجماعة حدثنا إن شاء الله، ثم مضينا، فلما صرنا إلى الياسرية حضرت الصلاة فنزلنا نتوضأ للصلاة، قال وكيع: فنظرتُ إلى شرطي محموم نائم في الشمس عليه سواده فطرحت كسائي عليه، وقلت: تدفأ إلى أن نتوضأ، فجاء ابن إدريس فاستلبه ثم قال: رحمته لا رحمك الله، في الدنيا أحد رحم مثل ذا؟ ثم التفت إلى حفص وقال: قد علمت حين دخلت إلى سوق أسد فخضبت لحيتك ودخلت الحمام أنك ستلي القضاء، ولا والله لا كلمتك حتى تموت، فما كلمه حتى مات[1].

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 73/1.

زبيري يقُتُّ بهاشم:

قال أبو زيد عمر بن شبة: لما قال الزبيري للرشيد فيما أغراه بيحيى بن عبد الله بن حسن وعند الرشيد يحيى، فقال: إن هذا يخبرني عنك بأمور إن صحت وجب علي تأديبك وإن أتى التأديب على نفسك. قال يحيى: يا أمير المؤمنين! إنما الناس نحن وأنتم، فإن خرجنا عليكم فيما أكلتم وأجعتمونا، ولبستم وأعريتمونا، وركبتم وأرحلتمونا، فوجدنا بذلك مقالاً فيكم ووجدتم بخروجنا عليكم مقالاً فينا يتكافأ فيه القول، ويعود أمير المؤمنين فيه على أهله بالفضل، يا أمير المؤمنين! فلم تجرئ هذا وضرباؤه على أهل بيتك؟ يسعى بهم عندك، والله ما يسعى بنا إليك نصيحة منه لك، وإنه ليأتينا فيسعى بك عندنا من غير نصيحة منه لنا، يريد أن يباعد بيننا ويشتفي من بعض ببعض، ووالله يا أمير المؤمنين إنه للخائن ابن الخائن، يسقط بين اللحاء والقضيب، يريد أن يوهنهما جميعاً حسداً وبغياً وغلاً، ثم التفت إلى الزبيري متمثلاً بقول الشاعر:

وقد يسود عصر السوء مثلكم ... وقد يعود رءوس الناس أذنابا

وقد قال بعض أهلك:

أليس من إلقاء الزمان على استه ... وقوف زبيري يقت بهاشم
إذا ما رآهم كان همزاً ولامزاً ... لأعراضهم ميناً وبغياً لحازم

قوله: يقت معناه ينم، وقال: لا يدخل الجنة قتات، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن القتات يعني النمام(1).

أبو إسحاق الفزاري يرد على اتهام الرشيد له:

قال الأصمعي: كنت جالساً بين يدي هارون الرشيد أنشده شعراً، وأبو يوسف القاضي جالس على يساره، فدخل الفضل بن الربيع، فقال: بالباب أبو إسحاق الفزاري، فقال: أدخله، فلما دخل قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال له الرشيد: لا سلم الله عليك ولا

(1) المصدر السابق، 79/1.

قرب دارك ولا حيا مزارك، قال: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: أنت الذي يحرم لبس السواد، قال: يا أمير المؤمنين، من أخبرك بهذا؟ لعل ذا أخبرك؟ وأشار إلى أبي يوسف - فعلى هذا لعنة الله وعلى أستاذه من قبله، والله يا أمير المؤمنين لقد خرج إبراهيم على جدك المنصور فخرج أخي معه، وعزمت على الغزو فأتيت أبا حنيفة فذكرت ذلك له، فقال لي: مخرج أخيك أحب إلي مما عزمت عليه من الغزو، ووالله ما حرمت السواد. فقال الرشيد: فسلم الله عليك وقرب دارك وحيا مزارك، اجلس يا أبا إسحاق، يا مسرور! ثلاثة آلاف دينار لأبي إسحاق، فأتى بها ووضعها في يده وخرج وانصرف، فلقيه ابن المبارك فقال: من أين أقبلت؟ فقال من عند أمير المؤمنين، وقد أعطاني هذه الدنانير، وأنا عنها غني، قال: فإن كان في نفسك منها شيء فتصدق بها فما خرج من سوق الرافقة حتى تصدق بها كلها[1].

كأس أم حكيم:

قال إبراهيم بن إسماعيل، أبو أحمد إبراهيم: ركب الرشيد يوماً بكراً فنظر إلى محمد الأمين يميل به سرجه، فقال: ما أصارك إلى هذا يا محمد؟ قال: أصارني إليه البارحة:

عللانـــي بعاتقـــات الكـــروم ⁝ واســـقياني بكـــأس أم حكـــيم

قال: فانصرف يا محمد، فلما رجع الرشيد وجه إليه بخادم ومعه كأس أم حكيم، وكان كأساً كبيراً فرعونيًّا، قد جعل فيه طوق ذهب ومقبض من ذهب، فإذا هو مملوء دنانير، وقال له: يقول لك أمير المؤمنين بعثت إليك بالذي أسهرك لتشرب فيه وتنتفع بما يصل معه، قال: فأعطى الخادم قبضة من دنانير، وفرق نصفه ما فيه على جلسائه وأعطى النصف خازنه وشرب في القدح ثلاثة أرطال رطلاً بعد رطل ورده، فكان مبلغ الدنانير عشرة آلاف دينار[2].

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 79/1.
(2) المصدر السابق، 107/1.

رأي أبي يوسف القاضي فيمن يشهدون عنده:

قال الرشيد لأبي يوسف القاضي: بلغني أنك تقول إن هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال وكيف ذلك؟ قال: لأن من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه، ومن ظهر أمره وانكشف ستره لم يأتنا ولم نقبله، وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره، فتبسم الرشيد وقال: صدقت[1].

الرشيد يحبس محمد بن الليث ثم يطلقه ويكرمه:

قال ثمامة بن أشرس: أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره، أن محمد بن الليث أبي الربيع الكاتب كتب إلى الرشيد رسالة يعظه فيها ويذكر فيها يحيى ابن خالد ويقول: يا أمير المؤمنين إن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله عز وجل، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت: أي رب! استكفيت يحيى ابن خالد أمور عبادك، أتراك تحتج بحجة يرضاها؟ مع كلام فيه توبيخ وتقريع، فلما قرأها الرشيد دعا يحيى بن خالد وقد تقدم إلى يحيى خبر هذه الرسالة، فقال له: أتعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم، قال: فأي الرجال هو؟ قال: متهم على الإسلام. فأمر الرشيد بمحمد بن الليث فوضع في المطبق فأقام دهراً، فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه فأحضر، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد! أتحبني، قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: أوتقول هذا؟ قال: نعم، وضعت في رجلي الأكبال وحلت بيني وبين العيال بلا ذنب ولا حدث أحدثت سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله، ويحب الإلحاد وأهله، فكيف أحبك؟قال: صدقت، وأمر بإطلاقه، ثم قال له: يا محمد بن الليث أتحبني، قال لا والله يا أمير المؤمنين، ولكن قد ذهب بعض ما كان في قلبي، فأمر أن يدفع إليه من ساعته مائة ألف درهم فأحضرت، فقال: يا محمد أتحبني؟ قال: أما الآن فنعم، قد أنعمت وأحسنت، فقال: انتقم الله لك ممن ظلمك وأخذ بحقك ممن

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 118/1.

بغى عليك، فكان هذا أول ما ظهر من الرشيد في أمر يحيى بن خالد ثم تزيد الأمر بعد ذلك[1].

تصميم قاضي الرقة على إنصاف المظلوم:

قال مصعب بن عبد الله: كان عبيد الله بن ظبيان قاضي الرقة، وكان الرشيد إذ ذاك بها، فجاء رجل فاستعدى إليه من عيسى بن جعفر، فكتب إليه ابن ظبيان: " أما بعد، أبقى الله الأمير وحفظه، وأتم نعمته عليه، أتاني رجلٌ يذكر أنه فلان ابن فلان، وأن له على الأمير - أبقاه الله - خمس مائة ألف درهم - فإن رأى الأمير - أبقاه الله - أن يحضر معه مجلس الحكم أو يوكل وكيلاً يناظر خصمه فعل ".

قال: ودفع الكتاب إلى الرجل، فأتى باب عيسى بن جعفر فدفع الكتاب إلى حاجبه فأوصله إليه، فقال له: كل هذا الكتاب.

فرجع إلى القاضي فأخبره، فكتب إليه: أبقاك الله وحفظك وأمتع بك، حضر رجلٌ يقال له فلان بن فلان، فذكر أن له عليك حقًّا فصر معه إلى مجلس الحكم أو وكيلك إن شاء الله.

ووجه بالكتاب مع عونين من أعوانه، فحضرا باب عيسى بن جعفر ودفعا الكتاب إليه، فغضب ورمى به، فانطلقا إليه فأخبراه.

فكتب إليه: حفظك الله وأبقاك وأمتع بك، لا بد أن تصير أنت وخصمك إلى مجلس الحكم، فإن أنت أبيت رفعت أمرك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله.

ووجه الكتاب مع رجلين من أصحابه العدول، فقعدوا على باب عيسى ابن جعفر حتى خرج، فقاما إليه ودفعا إليه كتاب القاضي، فلم يقرأه ورمى به، فأبلغاه ذلك.

فختم قمطره وانصرف وقعد في بيته، وبلغ الخبر الرشيد فدعاه فسأله عن أمره، فأخبره بالقصة حرفاً حرفاً، فقال لإبراهيم بن عثمان: صر إلى باب عيسى بن جعفر فاختم عليه أبوابه كلها، ولا يخرجن أحدٌ ولا يدخلن

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 127/1.

أحدٌ عليه حتى يخرج إلى الرجل من حقه أو يصير معه إلى الحاكم.

قال: فأحاط إبراهيم بداره ووكل بها خمسين فارساً وأغلقت أبوابه، وظن عيسى أنه قد حدث للرشيد رأيٌ في قتله، فلم يدر ما سبب ذلك، وجعل يكلم الأعوان من خلف الباب، وارتفع الصياح من داره، وصرخ النساء، فأمرهن أن يسكتن، وقال لبعض غلمان إبراهيم: ادع لي أبا إسحاق لأكلمه، فأعلموه ما قال: فجاء حتى صار إلى الباب، فقال له عيسى ويلك ما حالنا؟ فأخبره خبر ابن ظبيان، فأمر أن تحضر خمسمائة ألف درهم من ساعته ويدفع بها إلى الرجل.

فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره، فقال: إذا قبض الرجل ماله فافتح أبوابه[1].

عدل سوار القاضي وانتصار الرشيد له:

كان حماد بن موسى صاحب أمر محمد بن سليمان والغالب عليه، فحبس سوار القاضي رجلاً في بعض ما يحبس فيه القضاة، فبعث حمادٌ فأخرج الرجل من الحبس فجاء خصمه إلى سوار حتى دخل، فأخبره أن حماداً قد أخرج الرجل من الحبس.

وركب سوار حتى دخل على محمد بن سليمان وهو قاعدٌ للناس، والناس على مراتبهم، فجلس بحيث يراه محمد بن سليمان، ثم دعا آخر من نظرائه، فقال له كما قال للأول، فأجاب مثل جواب الأول فأقعده مع صاحبه، ففعل ذلك بجماعةٍ منهم، ثم قال لهم: انطلقوا إلى حماد بن موسى فضعوه في الحبس، فنظروا إلى محمد بن سليمان فأعلموه ما أمرهم به، فأشار إليهم: أن افعلوا ما يأمركم به، فانطلقوا إلى حماد فوضعوه في الحبس، وانصرف سوار إلى منزله، فلما كان بالعشي أراد محمد بن سليمان الركوب إلى سوار، فجاءته الرسل فقالوا: إن الأمير على الركوب إليك، فقال: لا، نحن بالركوب أولى إلى الأمير.

فركب إليه فقال: كنت على المجيء إليك أبا عبد الله، قال: ما كنت لأجشم الأمير ذاك، قال: بلغني ما صنع هذا الجاهل حماد، قال: هو ما بلغ

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 145/1.

الأمير، قال: فأحب أن تهب لي ذنبه، قال: أفعل أيها الأمير، اردد الرجل إلى الحبس، قال: نعم، بالصغر له والقماءة.

فوجه إلى الرجل فحبسه وأطلق حماداً، وكتب بذلك صاحب الخبر إلى الرشيد، فكتب إلى سوارٍ يجريه ويحمده على ما صنع، وكتب إلى محمد بن سليمان كتاباً غليظاً يذكر فيه حماداً ويقول: الرافضي ابن الرافضي، والله لولا أن الوعيد أمام العقوبة ما أدبته إلا بالسيف، ليكون عظةً لغيره ونكالاً.

يفتات على قاضي المسلمين في رأيه، ويركب هواه لموضعه منك، ويعرض في الأحكام استهانةً بأمر الله تعالى، وإقداماً على أمير المؤمنين، وما ذاك إلا بك، وبما أرخيت من رسنه، فأنا والله لئن عاد إلى مثلها ليجدني أغضب لدين الله تعالى، وأنتقم من أعدائه لأوليائه[1].

ربما نفع الحمق:

انفرد الرشيد وعيسى بن جعفر بن المنصور والفضل بن الربيع في صيد من الموكب، فلقوا أعرابياً مليحاً فصيحاً فولع به عيسى إلى أن قال له: يا بن الزانية! فقال: بئس ما قلت، قد وجب عليك ردها أو العوض، فارض بهذين المليحين يحكمان بيني وبينك، فقال: قد رضيت، فقالا: يا أعرابي! خذ منه دانقين عوضاً من شتمك، فقال: أهذا الحكم؟ فقالا: نعم، فقال: هذا درهمٌ وأمكم جميعاً زانية، وقد أرجحت لكما بترك ما وجب ليغلب عليهم الضحك، وما كان لهم سرور يومهم ذلك غير الأعرابي، وضم الرشيد الأعرابي إليه وخص به، وكان يدعوه في أكثرالأوقات، فكان الأعرابي بعد ذلك يقول للرشيد: لو عرفت لأبقيت، ولربما نفع الحمق[2].

إنهن يكفرن العشير:

خرج أمير المؤمنين الرشيد من عند زبيدة - وقد تغذى عندها ونام وشرب - وهو يضحك، فقلت: قد سرني سرور أمير المؤمنين، فقال: ما

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 148/1.
(2) المصدر السابق، 162/1.

أضحك إلا تعجباً، أكلت عند هذه المرأة ونمت وشربت فسمعت رنةً، فقلت: ما هذا، قالوا: ثلثمائة ألف دينار وردت من مصر، فقالت: هبها لي يا بن عم، فدفعتها إليها فما برحت حتى عربدت، وقالت: أي خير رأيت منك؟ قال القاضي: قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في النساء: **إنهن يكفرن العشير** -، وفسره بما ذكرت من إحسان الرجل إليها وأنها ترب منزلها، وتكشف وجهها بعد الحجر والخطر، وتقول لزوجها: ما رأيت منك خيراً قط[1].

ألا أن تحج ثانية يا أمير المؤمنين:

عن إبراهيم الجرجاني، قال: حججت مع أمير المؤمنين الرشيد فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينا أنا بين القبر والمنبر، إذ أنا عن يميني برجل حسن الهيئة خاضب، معه رجلٌ في مثل حاله، فحانت مني لفتة نحوه فإذا هو يكسر حاجبه، ويفتح فاه، ويلوي عنقه، ويشير بيده، فتجوزت في صلاتي وسلمت، فقلت: أفي مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تتغنى؟ قال: قنعك الله دار مخرمة، ما أجهلك! - قال: ودار مخرمة صخرة - أما في الجنة غناء؟ قلت: بلى، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، قال: فأنا في روضة من رياض الجنة، قلت: لا، قال: واحرباه! أترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: **بين قبري ومنبري روضةٌ من رياض الجنة** -، فنحن في تلك الروضة، فقلت: قبح الله شيخاً وشارة، ما أسفهك! فقال: بالقبر لما أنصت إلي، فتخوفت إلا أنصت إليه، فاندفع فتغنى بصوتٍ يخفيه:

فليست عشيات الحمى برواجع :: عليك ولكن خل عينك تدمعا

فوالله إن قمت للصلاة مما دخل علي، فلما رأى ما نزل بي، قال: يا بن أمي! أرى نفسك قد استجابت وطابت، فهل لك في زيادة؟ قلت: ويحك! مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: أنا أعرف بالله ورسوله منك، فدعنا من جهلك، وتغنى:

فلو كان واشٍ باليمامة داره :: وداري بأعلى حضرموت اهتدى

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 173/1.

وما بالهم لا أحسن الله حفظهم : ليالي
:: من الحظ هم في نصر هم ليلى
: حياليا

قال: فقال له صاحبه: يا بن أخي! أحسنت والله، عتق ما يملك لو أن هذا في موضع أمير المؤمنين الرشيد لخلع عليك ثيابه مشقومةً طرباً، قال: فقمت وهما لا يعلمان من أنا، فدخلت على أمير المؤمنين الرشيد، فحدثته، فقال: أدركهما لا يفوتانك، فوجهت من أتى بهما، فلما دخلا عليه ودخلا بوجوهٍ قد ذهب ماؤها، وأنا قائمٌ على رأسه، فقال: يا إبراهيم! هذان هما؟ قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، فنظر المغني منهما إلي وقال: سعاية في جوار قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فسري عن أمير المؤمنين بعض غضبه، فقال: ما كنتما فيه؟ قالا: خيرٌ، قال: فما من ذلك الخير؟ فسكتا، فقال للمغني منهما: من أنت؟ فابتدره جماعة فقالوا: يا أمير المؤمنين! هذا ابن جريج فقيه أهل مكة، فقال: فقيه يتغنى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: يا أمير المؤمنين! لم يكن ذلك بالقصد مني، ولكني سمعت من هذا المخزومي - يعني صاحبه - صوتين لم يزالا في قلبي حتى التقينا وأحببت أن يأخذهما علي فأخذهما علي، وحلفت إني قد أحسنت وأنه لو كان في موضع أمير المؤمنين لخلع علي، وسكت.

فقال: إن كنت تركت من الحديث شيئاً فهاته، فقال: ما تركت يا أمير المؤمنين شيئاً، قال: والله لتقولن ما قال أو لأضربن عنقك.

قال: يا أمير المؤمنين! قال: لو كنت في موضعه لخلعت عليه ثيابك مشقوقة طرباً، فتبسم الرشيد وقال: أما هذا فلا، ولكن سأنبذها لك صحيحة فهو خيرٌ لك، ثم دعا بثيابٍ ونبذ إليه ثيابه، وأمر له بعشرة آلاف درهم، ولصاحبه بخمسة آلاف درهم، وقال: لا تعود لمثل هذا.

قال: فقال صاحب ابن جريج: إلا أن تحج ثانيةً يا أمير المؤمنين، فضحك وقال: ألحقوه بصاحبه في الجائزة[1].

محمد البيدق ينتقم من النمري:

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 218/1، 219.

قال محمد البيدق - وكان أحسن الشعراء إنشاداً كان إنشاده أحسن من الغناء - قال: دعاني هارون الرشيد في عشي يوم وبين يديه طبقٌ وهو يأكل مما فيه ومعه الفضل بن الربيع، فقال لي الفضل: يا محمد! أنشد أمير المؤمنين ما يستحسن من مديحه، فأنشدته للنمري، فلما بلغت إلى هذا الموضع.

أي امرئ بات من هارون في سخطٍ ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن المكارم والمعروف أوديةٌ ... أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت أمراً فالله رافعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع
نفسي فداؤك والأبطال معلمةٌ ... يوم الوغى والمنايا بينهم قرع

قال: فأمر برفع الطعام، وقال: هذا والله أطيب من كل الطعام ومن كل شيء، وأجاز النمري بجائزة سنية، قال محمد البيدق: فأتيت النمري فعرفته أني كنت سبب الجائزة فلم يعطني شيئاً، وشخص إلى رأس عين فأحفظني وأغاظني، ثم دعاني الرشيد يوماً آخر، فقال: أنشدني يا محمد، فأنشدته:

شاءٌ من الناس راتعٌ هامل ... يعللون النفوس بالباطل

فلما بلغت إلى قوله:

إلا مساعير يغضبون لها ... بسلة البيض والقنا الذابل

قال: أراه يحرض علي، ابعثوا إليه من يجيئني برأسه، فتكلم الفضل بن الربيع فلم يغن كلامه شيئاً، فوجه الرسول إليه فوافاه في اليوم الذي مات فيه وقد دفن، فأراد نبشه وصلبه فكلم في ذلك فأمسك عنه [1].

الرشيد ولحم الجزور:

عن إبراهيم بن المهدي أنه كان يتغدى مع الرشيد في يوم شاتٍ، وإن

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 255/1، 256.

الرشيد سأل صاحب المطبخ: هل عنده برمة من لحم الجزور؟ فأعلمه أن عنده عدة ألوان منه، فأمر بإحضار ما عنده منه، فقدمت إليه صحفة ومد يده إلى لقمة منها فأدخلها في فيه، فلما حرك لحييه عليها مرتين ضحك جعفر بن يحيى، فسأله الرشيد عن سبب ضحكه، وأمسك عن المضغ، فقال: ذكرت كلاماً دار بيني وبين جاريتي البارحة فضحكت منه، فقال له الرشيد: هذا محال، فأخبرني عن السبب بحقي عليك، فقال له جعفر: إذا ابتلع أمير المؤمنين لقمته حدثته السبب، فأخرج لقمته من فيه وألقاها تحت المائدة، فلما فعل ذلك قال له جعفر: بكم يتوهم أمير المؤمنين أن هذا اللون يقوم عليه؟ فقال له الرشيد: أتوهمه يقوم علي بأربعة آلاف درهم، فقال له جعفر: والله إن هذا اللون ليقوم عليك بأربع مائة ألف درهم، فقال: وكيف ويحك؟ فقال جعفر: سأل أمير المؤمنين صاحب المطبخ منذ أكثر من أربع سنين عن برمةٍ من لحم الجزور فأخبره أنه لم يتخذها، فأنكر ذلك علي أمير المؤمنين وقال: لا يفت مطبخي لون يتخذ من لحم الجزور في كل يوم، فأنا منذ ذلك اليوم أنحر جزوراً في كل يومٍ لأن الخلفاء لا يبتاع لهم لحم الجزور من السوق، ولم يدع أمير المؤمنين بشيءٍ من لحمها إلى يومه هذا. قال إبراهيم: وكان الرشيد في أول طعامه ولم يكن أكل إلا ملهوجة واحدةً، وكان أشد خلق الله تقززاً، فصعق حين قال له جعفر ما قال، وضرب بيده اليمنى وفيها الغمر وجهه ومد بها لحيته ثم قال: هلكت ويلك يا هارون، واندفع يبكي، وأمر برفع المائدة وطفق يبكي حتى أذنه المؤذنون بصلاة الظهر، وأمر بألف ألف درهم وأن يفرق في كل جانب من جانبي بغداد خمسمائة ألف درهم وأن يفرق في كل مدينةٍ من الكوفة والبصرة خمسمائة ألف درهمٍ، وقال: لعل الله تعالى أن يغفر لي هذا الذنب. وقام يصلي الظهر، ثم عاد في مكانه فلم يزل باكياً حتى أذنه المؤذنون بصلاة العصر وقام فصلى: وعاد لمكانه إلى أن قرب ما بين صلاة العصر والمغرب، فأخبره القاسم بن الربيع مولاه أن أباه يوسف القاضي بالباب فأمره بإدخاله، فدخل وسلم فلم يرد عليه وأقبل يقول: يا يعقوب هلك

هارون، فسأله يعقوب عن القصة فقال: يخبرك جعفر بهان وعاد لبكائه. وحضر جعفر فسأله أبو يوسف عن القصة والسبب المخرج للرشيد إلى ما خرج إليه، فحدثه جعفر عن الجزور التي كانت تنحر في كل يوم طول تلك المدة ومبلغ ما أنفق في أثمانها من الأموال، فقال له أبو يوسف: أخبرني عن هذه الإبل التي كانت تبتاع بهذه الدراهم هل كانت تترك إذا نحرت حتى تفسد، ولا تؤكل لحومها حتى تنتن فيرمى بها؟ قال جعفر: اللهم لا، قال أبو يوسف: فكان يصنع بها ماذا؟ قال: يأكلها الحشم والموالي وعيال أمير المؤمنين، فقال أبو يوسف: الله أكبر الله أكبر، أبشر يا أمير المؤمنين بالثواب الجزيل من الله عز وجل على نفقتك، وأبشر بثواب الله تعالى على ما فتح لك من الصدقة في يومك هذا، ومن البكاء للتقية من ربك، فإني لأرجو يا أمير المؤمنين أن لا يرضى الله تعالى من ثوابه على ما قد داخلك من الخوف من سخطه عليك إلا الجنة، فإنه يقول تعالى:{ڤ ڤ ڤ ڄ ڄ } [الرحمن: ٤٦]، وأنا أشهد بالله تعالى أنك خفت مقام ربك، فسري عن الرشيد وطابت نفسه ووصل أبا يوسف بأربعمائة ألف درهم، ثم صلى المغرب ودعا بطعامه فأكل، فكان غداؤه في اليوم عشاءه[1].

حسد إسحاق الموصلي للأصمعي:

قال أحمد بن علي بن أبي نعيم: كان الرشيد يحب الوحدة، فكان إذا ركب حماره عادله الفضل بن الربيع، وكان الأصمعي يسير قريباً منه بحيث يحادثه، وإسحاق الموصلي على دابةٍ يسير قريباً من الفضل. فأقبل الأصمعي لا يحدث الرشيد شيئاً إلا سر به وضحك منه، فحسده إسحاق.

وكان فيما حدثه الأصمعي قال: يا أمير المؤمنين مررت على رجلٍ زانكي جالس على بابه قال: ويحك فما الزانكي؟ فوصفه له قال العسكري: هو الشارط قال: فقلت له: يا فتى أيسرك أنك أمير المؤمنين؟ قال: لا، قلت: ولم؟ قال: لا يدعوني أذهب حيث شئت، قال فقال الرشيد: صدق والله ما يدعونا نذهب حيث شئنا. قال: فاستضحك الرشيد. قال: فقال إسحاق

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 283/1.

للفضل: ما يقول كذب، فقال الرشيد: أي شيء قال؟ فأخبره فغضب فقال: والله إن كان ما يقول كذباً إنه لأظرف الناس، وإن كان حقًّا إنه لأعلم الناس فمكث بينهما شر دهراً من الدهر[1].

صدق أبو هريرة:

قال عمر بن حبيب: كنا عند هارون أمير المؤمنين، وبين يديه قوم يتناظرون، فذكروا حديثاً فقالوا: رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذب أبو هريرة، وارتفعت أصواتهم بتكذيب أبي هريرة، فرأيت هارون قد نحا نحوهم ومال إلى قولهم، فقلت أنا: صدق أبو هريرة، وأبو هريرة الصادق في روايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقمت فانصرفت.

فلما دخلت منزلي وافيى بريد فأدخلته فقال: أجب أمير المؤمنين أجابة مقتول لأنك لا ترجع، فقلت في نفسي: الله يعلم أني قمت بحقٍّ، ونصرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومضيت إلى هارون فدخلت عليه وهو جالس على كرسي من ذهب حاسراً عن ذراعية، بيده سيف، فقال: يا عمر بن حبيب،تقبل علي بالرد بما أقبلت به؟! فقلت: يا أمير المؤمنين، الذي قلته إزراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كذابين فأمر الإسلام كله باطل، والصلاة الصوم والطلاق والحدود. قال: صدقت يا عمر بن حبيب، أحييتني أحياك الله، أحييتني أحياك الله[2].

خبر ابن جامع في مجلس الرشيد:

قال إسماعيل بن جامع السهمي: ضمني الدهر ضماً شديداً بمكة، فانتقلت منها بعيالي إلى المدينة، فأصبحت يوماً لا أملك إلا ثلاثة دراهم، فخرجت وهي في كمي، فإذا بجاريةٍ حميراء على رقبتها جرة تريد الركي، تمشي بين يدي وتترنم بصوتٍ شجيٍ تقول فيه:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا :: فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا

(1) المصدر السابق 285/1، 286.
(2) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 301/1.

وذلك أن النوم يغشى عيونهم : سراعاً وما يغشى لنا النوم أعينا
إذ ما دنا الليل المضر بذي :: جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
الهوى : نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما ::
:

فوالله ما دار لي منه حرف واحد فقلت لها: يا جارية ما أدري أوجهك أحسن أم صوتك أم جرمك، فإن شئت أعدتيه علي، فقالت: حباً وكرامة، ثم أسندت ظهرها إلى جدارٍ كان بالقرب منها ورفعت إحدى رجليها فوضعتها على ركبتها وحطت الجرة فوضعتها على ساقها واندفعت تغني بأحسن صوت، فو الله ما دار لي منه حرف واحد، فقلت لها: لقد أحسنت وتفضلت فلو شئت أعدتيه مرةً أخرى، فقطبت وكلحت وقالت: ما أعجب هذا، أحدكم يجيء إلى الجارية عليها ضريبة فيقول لها: أعيدي مرةً بعد أخرى،فضربت يدي إلى الثلاثة الدراهم فدفعتها إليها وقلت لها: أقيمي بهذا وجهك اليوم إلى أن نلتقي، فأخذتها شبه المتكرهة ثم قالت: الآن تريد أن تأخذ عني صوتاً أحسبك تأخذ عليه ألف دينارٍ، وألف دينارٍ وألف دينارٍ، ثم انبعثت تغني وأعملت فكري في غنائها فدار لي الصوت وفهمته، وانصرفت به مسروراً إلى منزلي المكاري على باب المحول، فدخلت لا أدري أين أتوجه ولا من أقصد، وانتهى بي الناس إلى الجسر، فعبرت في من عبر حتى انتهوا بي إلى شارع الميدان عند دار الفضل بن الربيع، فرأيت هناك مسجداً مرتفعاً فقلت: هذا مسجد قوم سراةٍ، وحضرت المغرب فصعدت المسجد فما لبثت أن جاء المؤذن فأذن وأقام وصليت، وانصرف الناس وأقمت مكاني إلى أن رجع المؤذن فأذن وأقام، وصليت وانصرف الناس وأقمت مكاني إلى أن رجع المؤذن فأذن وأقام، وصليت مع الناس على تعبٍ وجوع، وانصرف الناس وبقي رجل يصلي مليًّا وخلفه جماعة من الخدم والفحولة ينتظرونه، فلما فرغ من صلاته انصرف إلي ببدنه كله فقال: أحسبك غريباً، قلت: أجل، قال: متى كنت بهذه المدينة؟ قلت: آنفاً دخلتها، وليس لي بها معرفة، وليست صناعتي من الصنائع التي يمت بها إلى أهل الخير، قال: وما صناعتك؟ قلت: الغناء،

فوثب مبادراً ووكل بي رجلاً، فقلت للموكل بي: من هذا؟ قال: أوما تعرفه؟ هذا سلام الأبرش قال: وإذا رسول قد جاء في طلبي ثم مشينا حتى انتهى بي إلى قصرٍ من قصور الخلافة وجعل يجاوز بي مقصورةً بعد مقصورةٍ إلى أن دخلنا مقصورةً في آخر الدهليز، فدعا لي بالطعام، فأتيت بمائدةٍ عليها من كل شيء، فأقبلت على أكلي حتى تراجعت إلي نفسي، وسمعت ركضاً في الدهليز، فإذا إنسان يقول: أين الرجل، أين الرجل؟ فقيل: ها هو ذا، فقال يدعى له بغسول وطيب وخلعةٍ، فغلفت وخلع علي وأخذ الرجل بيدي فحملني على دابةٍ وأتى بنا منزل الخليفة فاستدللت على ذلك بالحرس والتكبير والنيران، فما زال يدخلني من دار إلى دار إلى أن دخلت إلى دارٍ قوراء وإذا فيها أسرة مضاف بعضها إلى بعض، فلما انتهيت إلى الأسرة أمرني بالصعود فصعدت، وإذا رجل جالس على يمينه ثلاث جوارٍ في حجورهن العيدان، وإذا في حجر الرجل عود فسلمت فرحب بي وأمرني بالجلوس فجلست، وإذا مجالس خالية قد كان فيها قوم فقاموا عنها، فما لبثت أن خرج خادم من وراء الستر فقال للرجل: تغنه، فاندفع يغني بصوتٍ لي يقول فيه:

لم تمش ميلاً ولم تركب على جملٍ :: ولم تر الشمس إلا دونها الكللا
تمشي الهوينا كأن الشوكَ يحبسها :: مشي اليعافير في جيئاتها الوجلا

فوالله ما أحسن الغناء، ولقد غنى بغير إصابةٍ وأوتارٍ متنافرة ودساتين مختلفةٍ، ثم عاد ذلك الخادم إلى الجارية التي تلي الرجل فقال لها: تغني فانبعثت تغني بصوت لي كانت فيه أحسن حالاً من الرجل تقول فيه:

يا دار أضحت خلاءً لا أنيس بها :: إلا الظباء وإلا الناشط الفرد
أين الذين إذا ما زرتهم جذلوا :: وطار عن قلبي التشواق والكمد

ثم عاد الخادم إلى الجارية الثانية فقال لها: تغني فانبعث تغني بصوت حكم الوادي تقول فيه:

فوالله ما أدري أيغلبني الهوى :: إذا جد وشك البين أم أنا غالبه
فإن أستطع أغلب وإن يغلب :: ففي دون ما لاقيت يغلب صاحبه

الهـــــــــــــــــــــوى

ثم عاد الخادم إلى الجارية الثالثة فقال لها: تغني فغنت بصوت لحنين تقول فيه:

مررنـــا علـــى قيســـيةٍ عامريـــةٍ ... لهـا بشـر صـافي الأديـم هجـان
فقالـــت وألقـــت جانـــبَ الســـجفِ ... مـن آيـــةِ حـــي أو مـــن الـــرجلان
دونـهـــــــــــــــــــــا ... هـديت وأمـا صـاحبي فيمـاني
فقلـــت لهـــا أمـــا تمـــيم فأســـرتي ... وقـــد يلتقـــي الشـــتى فيأتلفـــان
رفيقـان ضـم السـفر بينـي وبينـه

قال فعاد الخادم إلى الرجل فقال له: تغنه، فغنى بصوتٍ لي شبه فيه، والشعر لعمر بن أبي ربيعة الغناء للغريض يقول فيه:

أمس بأسماء هذا القلب معمودا ... إذا أقـول صـحا يعتـاده عيـدا
كـأن أحـور مـن غـزلان شـيهمةٍ ... أعارهـا شـبها خديـه والجيـدا
قامت تراءى وقد جد الرحيل بنا ... لتنكأ القرح من قلبٍ قد اصطلدا
بمشرق كشعاع الشمس بهجتـه ... ومسـبكر علـى لبأتهـا سـودا

ثم عاد الخادم إلى الجارية التي تليه فقال لها: تغني، فغنت بصوتٍ لحكم الوادي يقول فيه:

تعيرنـــا أنـــا قيـــل عديـــدنا ... فقلـــت لهـــا إن الكـــرام قليـــل
ومـا ضـرنا أنـا قليـل وجارنـا ... عزيـز وجـار الأكثـرين ذليـل
وإنـا لقـوم مـا نـرى القتـل سبةً ... إذا كرهتـــه عـــامر وســـلول
يقـرب حـب المـوت آجالنـا لنـا ... وتكرهـــه آجـــالهم فتطـــول

وتغنت الجارية الثانية عند قول الخادم لها تغني:

وددتك لما كان ودك خالصاً ... وأعرضت لما صار نهباً مقسما
ولن يلبث الحوض الوثيق بناءه ... إذاكثر الوراد أن يتهدما

وتغنت الثالثة بشعر الخنساء بنت عمرو بن الحارث في أخيها صخر:

وما كر إلا كان أول طاعن ... ولا أبصرته العين إلا اقشعرت
فيدرك ثأراً ثم لم يخطه الغنى ... فمثل أخي يوماً به العين قرت
وإن طلبوا وتراً بدا بتراتهم ... ويضربهم شزراً إذا الخيل ولت
فلست أرزا بعده برزيةٍ ... فأذكره إلا سلت وتجلت

وكان غناء الرجل في الدور الثالث:

لحا الله صعلوكاً يبيت وهمه ... من الدهر أن يلقى لبوساً
ينام الضحى حتى إذا نومه ... ومطعما
استوى ... تنبه مسلوب الفؤاد مورما
ولكن صعلوكاً يساور همه ... ويمشي على الهيجاء ليثاً
فذلك إن يلق المنية تلقه ... مصمما
كريماً وإن يستغن يوماً فربما

وكان غناء الجارية في الدور الثالث بشعر لحاتم يقول فيه:

إذا كنت رباً للقلوص فلا تدع ... رفيقك بمشي خلفها غير راكب
أنخها فأردفه فإن حملتكما ... فذاك وإن كان العقاب فعاقب

وكان غناءالجارية الثانية في الدور بشعر عمرو بن معدي كرب:

ألم تر لما ضمني البلد القفر ... سمعت نداءً يصدع القلب يا
أغثنا فإنا معشر مذحجية ... عمرو
نزار على وفرٍ وليس لنا وفر

وكان غناء الثالثة بشعرٍ لعمر بن أبي ربيعة والغناء فيه للغريض:

::

فلما تلاقينا وسلمت أشرقت : وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبالهن بالعرفان لما رأيننـي :: وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا
فلما تواضعنا الأحاديث قلن لي : أخفت علينا أن نغر ونخدعا

قال: فقلت في نفسي: أي شيء أنتظر؟ يجيء الخادم الساعة يطالبني بمثل ما طالب به أصحابي، فقلت للرجل: بأبي أنت خذ العود إليك وشد وتر كذا وارفع الطبقة وغير وتر كذا وحط دستان كذا، فعلم ما أريد فوزنه، فلم ألبث أن خرج الخادم فقال لي تغنه، عافاك الله، فانبعثت أغني بصوت الرجل الأول على غير ما غنى به فإذا بنحوٍ من خمسين أو ستين خادماً يحضرون حتى استندوا إلى الأسرة ثم قالوا: ويحك لمن هذا الغناء؟ قلت: لي، فانصرفوا عني بتلك السرعة، فخرج إلي الخادم فقال: كذبت هذا الغناء لابن جامع، فسكت، ودار الدور فلما انتهى إلي خرج الخادم فقال تغنه، فقلت للجارية التي تلي الرجل: خذي العود فانبعثت أغني صوتها، فخرجت الجماعة من الخدم فقالوا: ويحك لمن هذا؟ فقلت: لي، فمضوا ورجع الخادم فقال لي: كذبت، هذا لابن جامع. فأمسكت عنه ودار الدور، فلما بلغ إلي خرج الخادم فقال: تغنه، فقلت في نفسي، وقد شربت وقويت منتي: ما أنتظر؟ فاندفعت أغني بصوتٍ لا يعرف إلا بي:

::

عوجي علي فسلمي جبر : فيم الوقوف وأنتم سفر
مانلتقي إلا ثلاث منى :: جتى يفرق بيننا النفر
:

قال: فتزلزلت والله عليهم الدار، وخرج الخادم فقال: ويحك، لمن هذا؟ فقلت: لي، قال: فرجعوا فقالوا: هذا لابن جامع، فقلت: أنا إسماعيل بن جامع، قال: فما شعرت إلا وأمير المؤمنين وجعفر بن يحيى قد أقبلا من وراء الستر، فلما صعدا السرير وثبت على قدمي، فابتدأني أمير المؤمنين فقال: ابن جامع؟ فقلت: ابن جامع جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، قال: ويحك متى كنت في هذه المدينة؟ قلت: آنفا دخلتها في الوقت الذي علم بي أمير المؤمنين قال: اجلس ويحك يا بن جامع، وجلس أمير المؤمين وجعفر

بن يحيى في بعض تلك المجالس الفرغ وقال لي: يا بن جامع، أبشر وابسط أملك، فدعوت له دعواتٍ ثم قال: عن يا بن جامع، قال: فخطر بقلبي صوت الجارية المدينية، فقلت للرجل: أصلح عودك وارفع طبقته، قال: فعلم ما أريد فوزن العود وزناً، وتعهدته حتى استقامت الأوتار وأخذت الدساتين مواضعها، وانبعثت أغني بصوت الجارية الحميراء، فنظر أمير المؤمنين إلى جعفر بن يحيى فقال له: أسمعت كذا قط؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما سمعت ولا خرق سمعي مثله قط، ولا ظننت أن الله عز وجل خلق على وجه الأرض مثل ما أسمع، قال: فرفع الرشيد رأسه إلى خادم بالقرب منه فقال له: كيس فيه ألف دينارٍ قال: فمضى الخادم فلم يلبث أن عاد بكيسٍ فيه ألف دينارٍ، فصيرته تحت فخذي ودعوت لأمير المؤمنين، فقال لي: يا بن جامع رد على أمير المؤمنين هذا الصوت، فرددته وتزيدت في غنائي وأعانني على ذلك استواء الأوتار، قال: فنظر جعفر إلى أمير المؤمنين فقال: يا سيدي أما تسمعه كيف يتزايد في الغناء؟ هذا خلاف الذي سمعنا أولاً، على أن الأمر فيه واحد، قال: فرفع الرشيد رأسه إلى الخادم فقال: كيس فيه ألف دينار، فمضى الخادم وجاء بكيس فيه ألف دينار فرمى به إلي فصيرته تحت فخذي، ثم قال لي أمير المؤمنين: تغن ما حضرك، فأقبلت أقصد إلى الصوت بعد الصوت مما كان يبلغني أنه يشتري عليه الجواري فأغنيه، فلم أزل أفعل ذلك إلى أن عسعس الليل، فقال: يا إسماعيل قد أتعبناك في هذه الليلة لسروري بغنائك، فتعيد علي الصوت الذي تغنيت به أولاً يعني صوت الجارية فغنيته إياه، فرفع رأسه إلى الخادم فقال: كيس فيه ألف دينار، وذكرت قول الجارية: إني أحسبك تأخذ عليه ألف دينار وألف دينار وألف دينارٍ، فكان مني شبه التبسم، ولحظني من بين الشمع فقال لي: مم تبسمت؟ قال: فجثوت على ركبتي ثم قلت: يا أمير المؤمنين الصدق منجاة، فقال لي بانتهار: قل، فحدثته حديث الجارية فقال: صدقت قد يكون هذا وأعجب منه؛ ثم قال لي: انصرف مودعاً، فقمت لا أدري إلى أين انفذ ذلك الوقت، فما هو إلا أن نزلت من الأسرة حتى وثب إلي غفيران من الفراشين، فأخذ أحدهما بيدي اليمنى والآخر باليسرى ومضيا بي لا أدري أين يتوجهان

بي، حتى وقفا بي على باب داري هذه، فإذا أمير المؤمنين قد أمر سلاماً فابتاع لي هذه الدار وحول أهلها، وحشيت بالفرش والوصائف والوصفاء والطعام والشراب، ودفع إلي أحدهما إضبارة مفاتيح وقال لي: ادخل بارك الله لك فيها، وهذا مفتاح بيت كذا، وهذا مفتاح بيت مالك، وهذا مفتاح سبرة الجواري، وهذا مفتاح بيت فرشك وآنيتك، وأوقفني على ما أردت، فأصبحت وأنا من مياسير أهل بغداد، ودخلتها وأنا أفقر أهلها، والحمد لله رب العالمين[1].

أعرابي معه نصيحة يدخل على الرشيد:

عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: بينا أنا جالس مع الرشيد على المائدة إذ دخل الحاجب فأعلمه أن بالباب أعرابيًّا معه نصيحة، فأمر بإحضاره، فلما دخل أمره بالجلوس على المائدة ففعل، وكان معه صباحة وفصاحة، فلما تم الغداء ورفعت الموائد وجاء الغسل غسل يده، ثم أمر بالشراب فأحضر، فقال: يا أمير المؤمنين ما حالتي في اللباس، فاستحسن هارون ذلك من فعله وأمر بثياب حسنةٍ فطرحت عليه، وقال له: يا أعرابي من أين؟ قال: من الكوفة قال: أعرابي أم مولى؟ قال: بل عربي قال: فما الذي قصد بك إلينا وما نصيحتك؟ قال: قصد بي إليك قلة المال وكثرة العيال، وأما نصيحتي فإني علمت أني لا أصل إليك إلا بها، قال: فأخذ إسحاق العود فغنى صوتاً يشتهيه الرشيد ويطرب عليه وهو:

ليس لي شافع إليك سوى الدمع يشفع
عشت بعدي ومت قبلك هل فيك مطمع
قسم الحب خمسة صار لي منه أربع
فإلى الله أشتكي كبداً لي تقطع

فقال الرشيد كالمازح: كيف ترى هذا يا أعرابي؟ قال: بئس والله ما غنى، فغضب من ذلك هارون وصعب عليه، قال إسحاق: وسقط في يدي،

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 345/1 - 347.

فقال هارون: ويلك يا أعرابي، وهل يكون شيء أحسن من هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قولي حيث أقول:

لا وحبيـــــــك لا أصـــــــا ⁝ فـــــح بالـــــدمع مـــــدمعا
مـــن بكـــى شـــجوه اســـترا ⁝ ح وإن كـــــان موجعـــــا
كبـــدي فـــي هـــواك أس ⁝ قـــم مـــــن أن تقطعـــا
لـــم تـــدع ســـورة الهـــوى ⁝ للبلـــــى فـــــي مطمعـــا

قال: فاستملح هارون ذلك منه وأمر إسحاق أن يغنيه به شهراً لا يقطعه عنه، وأمر للأعرابي بعشرة آلاف درهمٍ وصرفه [1].

أعرابياً ما أدهاه!!:

قال أبو الفضل الربعي: خرج الرشيد في بعض متنزهاته فلما أسرع السير في بعض البراري انفرد من الناس على نحو من ميل، فرفع له خباء منصوب فأمه حتى وقف عليه، فإذا فيه أعرابي جالس، فسلم عليه الرشيد، فرد عليه الأعرابي السلام ثم رفع رأسه إليه فقال: من أنت يا حسن الوجه؟ فقال له الرشيد: أنا من أبغض الناس إلى الناس، قال الأعرابي: أنت إذاً من معد، قال نعم، قال: من أي معد؟ قال: من أبغض معد إلى معد، قال: فأنت إذاً من مضر، قال: نعم، قال: فمن أي مضر أنت؟ قال: من أبغض مضر إلى مضر، قال: فأنت إذاً من كنانة، قال: نعم، قال: من أي كنانة؟ قال: من أبغض كنانة إلى كنانة، قال: فأنت إذاً من قريش، قال: نعم، قال: من أي قريش أنت؟ قال: من أبغض قريش إلى قريش، قال: فأنت إذاً من بني هاشم، قال نعم، قال: فمن أي بني هاشم أنت؟ قال: من أبغض بني هاشم إلى بني هاشم، قال: فأنت إذاً من ولد العباس، قال: نعم، قال: فمن أي ولد العباس؟ قال: من أبغض بني العباس إلى بني العباس، قال: فوثب الأعرابي قائماً ثم قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وتوافت الجيوش، فقال الرشيد: احملوه قاتله الله أعرابيًّا ما أدهاه!! [2].

كيف سار المثل " الخير يبقى والشر أخبث زاد " :

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 349/1.
(2) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 367/1.

عن الشرقي بن القطامي قال الرشيد للمفضل الضبي: أخبرني يا مفضل عن قول العرب:

الخير يبقى وإن طال الزمان به :: والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقال: يا أمير المؤمنين هذا مثل لهم سائر قبل الإسلام، وكان من حديث هذا المثل أن عبيد بن الأبرص الأسدي كان حكيماً من حكماء العرب وشاعراً مجيداً، قتله المنذر بن ماء السماء من أجل الغريين وكان من حديث هذا المثل قبل أن يقتله المنذر بثلاثة أحوال أن ناساً نزلوا عليه فقراهم وأحسن ضيافتهم وكان يقري الضيف ويحسن إلى المنقطع به، فلما أراد القوم الرحيل خرج معهم يشيعهم، فشيعهم حتى أبعدوا ونزلوا في موضع وقال غيره: فلما نزل القوم وعرسوا خرج عبيد وصاحب له يمشيان في الموضع الذي نزل القوم فيه، وسارا حتى أتيا حبًّا هناك فرأيا شجاعاً عظيماً أقرع يلهث قد أدلع لسانه من العطش، فأخذ صاحب عبيدٍ حجراً وهم أن يشدخه به، فقال له عبيد: ما أنت صانع؟ قال: أقتل هذا الشجاع فإنه عدو، قال عبيد: لا تفعل فإن الأسير قد يجار وإن كان عدواً، ثم استقى من الحب ماءً فسقى الشجاع، فجعل يشرب حتى روي، ثم تسبسب في الرمل فغاب، قال: ورجع عبيد إلى القوم فودعهم ثم رحلوا، ورجع عبيد إلى منزله فأقام حولين، فأتاه بعض الرعاة فخبره أن إبله قد شردت فركب راحلة له وخرج في طلب الإبل، وكان شجاعاً بطلاً، فسار عشر مراحل لا يرى لها أثراً ولا يعرف لها خبراً، حتى إذا كان في بعض الليالي وقد كلت راحلته وتعب وأظلم الليل وهبت الرياح فلم ير سهلاً ولا جبلاً نفقت الراحلة، فقال:

يا لك من ليلٍ ديجور ومن نفوق راحلةٍ بالليل، وكان الموضع الذي هو فيه يقال له الصادي وهناك ماء، فقال: والله ما أرى إلا الإقامة على هذا الماء والموت، ثم حط رحله عن راحلته وأسند ظهره إليه وطأطأ رأسه إلى الأرض وجمع أثوابه عليه، فإذا هاتف يهتف به من خلفه، يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو يقول:

يا أيها الشخص المضل مذهبه :: وليس معه من أنيس يصحبه
دونك هذا البكر خذه فاركبه : حتى إذا الليل توارى مغربه

بســاطع الصــبح ولاح كوكبــه :: فحــط عنــه رحلــه وسبســبه

قال القاضي: ويروى تواري غيهبه، والغيهب الظلمة. فالتفت وراءه فإذا بكر معقول عليه رحل، فوثب حتى حل عقاله وصار في متنه، فوثب البكر من غير أن يثيره حتى استقام على الطريق يسير به كالبرق الخاطف وكالريح العاصف لا يلوي على شيءٍ ولا يفتر من السير، حتى إذا كان في وجه الصبح ونظر عبيد إلى بياض الحيرة برك البكر فلم يقم، فاستحثه فلم يقم، فقال: إنه لمأمور، وثنى رجله فنزل عنه وولى ناحية فثار البكر يجر بزمامه، فقال عبيد: بكر يسري في ليلةٍ واحدةٍ عشر مراحل لا أسأله ما أنت ولا من الذي أرسلك إلي؟! ثم أدار وجهه إليه وهو يقول:

يا أيها الكبر قد أنجيت من كربٍ :: ومن فيافٍ تضل المدلج الهادي
ألا أنبــت لنــا بــالقول نعرفــه :: مــن الــذي جــاد بالنعمــاء فــي الــــــــــــــــــــــوادي
اذهــب سـليماً فقـد بلغـت مأمننـا :: بوركــت مــن ذي ســنامٍ حامــل حـــــــــــــــــادي

قال: فأجابه البكر وهو يقول:

أنــا الشـجاع الـذي ألفيتـه رمضـاً :: ينــازع المــاء مــن ذي المــورد الصــــــــــــــــادي
فجـدت بالمـاء لمـا ضـن حاملـه :: رويت هـامي ولـم تولـع بإنكـادي
الخير يبقى وإن طـال الزمـان بـه :: والشر أخبث ما أوعيت من زاد

قال القاضي ويرى: ما أوعبت في الزاد

هــذا جــزاؤك مــن لا أمــن بــه :: فسـر سـليماً وقـاك الله مـن هـاد

فقال له الرشيد: أحسنت يا مفضل، يا ربيع أعطه عشرين ألفاً، عشرة آلاف لمعرفته بالمثل وأصله، وعشرة آلاف لحسن روايته له.

قال القاضي: في هذا الخبر نفقت الراحلة وإنما يقال نفق الفرس وتنبل

البعير[1].

تجز ذؤابتيها للجهاد:

قال العتبيّ: سبا الروم نساءً مسلماتٍ فبلغ الخبر الرقّة وبها الرشيد ومنصور بن عمّار هناك، فقصّ منصور يحضُّ على الغزو، فإذا خرقةٌ مصرورةٌ مختومة قد طرحت إلى منصور، وإذا كتاب مضمومٌ إلى الصرّة فقرأه فإذا فيه: إنّي امرأةٌ من بيوتات العرب، بلغني ما فعل الروم بالمسلمات، وبلغني تحضيضك على الغزو، فعمدت إلى أكرم شيء في بدني عليّ، وهما ذؤابتاي، فجززتهما وصررتهما في هذه الصرّة المختومة، فأنشدك بالله العظيم لما جعلتهما قيد فرس غازٍ في سبيل الله، فعلَّ الله ينظر إليَّ نظرةً على تلك الحال فيرحمني، فبلغ ذلك الرشيد فبكى ونادى النفير.

تعليق:

قد أتت هذه المرأة بما دلّ على خلوص دينها وصحَّة يقينها، وغضبها لربّها، وغيرتها على أهل ملّتها، وامتعاضها عندما بلغها من انتهاك أعداء الله محارمه التي حرَّمها، واستخفافهم بحدود الإسلام الّتي عظّمها، وقصدت بما أتته من جزّها ذؤابتيها التقرُّب إلى خالقها ورجاء مغفرته لها، والله يحقّق برأفته وسعة رحمته رجاءها، ويغفر لنا ولها، ولم تقصد بما فعلته الأمر الّذي حرِّم عليها فيؤثمها، فقد جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه لعن الغارفة وهي التي تجزُّ ناصيتها عند المصيبة، وإلى الله نرغب في أن يجعلنا ممّن يغضب له ويحام عن دينه ويوالي ويعادي فيه، بتوفيقه[2].

والحكم لله:

حبس الرشيد رجلاً، فلما طال حبسه كتب إليه: إن كل يوم يمضي من

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 392/1.
(2) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 414/1، 415.

نعيمك يمضي من بؤسي مثله، والأمد قريب، والحكم لله، فأطلقه[1].

جبار الأرض كيف يتضرع إلى جبار السماء؟

حكى عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الخراساني، قال: حججت مع أبي سنة حج الرشيد، فإذا نحن بالرشيد، واقف حاسر حاف على الحصباء وقد رفع يديه وهو يرتعد ويبكي ويقول: يا رب أنت أنت، وأنا أنا، أنا العواد بالذنوب وأنت العواد بالمغفرة، اغفر لي فقال لي أبي: انظر إلى جبار الأرض كيف يتضرع إلى جبار السماء؟ [2].

قيل: وأمر الرشيد يحيى بن خالج بحبس رجل جنى جناية فحبسه، ثم سأل عنه الرشيد فقيل: هو كثير الصلاة والدعاء، فقال للموكل به: عرض له بأن تكلمني وتسألني إطلاقه، فقال له الموكل ذلك، فقال لأمير المؤمنين: إن كل يوم يمضي من نعمتك ينقص من محنتي، والأمر قريب، والموعد الصراط، وإلحاحك الله، فخر الرشيد مغشياً عليه ثم أفاق وأمر بإطلاقه[3].

أرق الرشيد:

قال السجستاني: أرق الرشيد ذات ليلة، فوجه إلى عبد الملك الأصمعي، وإلى الحسين الخليع، فأحضرهما، وشكا إليهما مدافعة نومه، وشدة أرقه، وقال لهما: عللاني بأحاديثكما، وابدأ أنت يا حسين. قال: نعم يا أمير المؤمنين خرجت في بعض السنين منحدراً إلى البصرة، وممتدحاً لآل سليمان، فقصدت محمد بن سليمان بقصيدتي، فقبلها وأمرني بالمقام، فخرجت ذات يوم إلى المربد، وجعلت المهالبة طريقي، فأصابني حر وعطش، فدنوت من باب دار كبير لأستسقي، فإذا بجارية أحسن ما يكون كأنها قضيب يتثنى، وسناء العينين، زجاء الحاجبين، مهفهفة الخصر،

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 141/1.
(2) الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، 185/1.
(3) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، المحاسن والأضداد، 32/1.

حاسرة الرأس، مفتوحة الجربان، عليها قميص لاذ جلناري، ورداء عدني، قد علت شدة بياض بدنها حمرة قميصها، تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين، وبطن كطي القباطي، وعكن مثل القراطيس، لهما جمة جعدة، بالمسك محشوة، وهي، يا أمير المؤمنين، متقلدة خرزاً من ذهب، والجوهر يزهو بين ترائبها، وعلى صحن جبينها طرة كالسبج، وحاجبان مقرونان، وعينان كحلاوان، وخدان أسيلان، وأنف أقنى، تحته ثغر كاللؤلؤ وأسنان كالدر، وقد غلب جريانها سواد المسك والغالية ودابر العود الهندي، على لبتها، عبق الخلوق وهي والهة حيرى، واقفة في الدهليز، وجائية تخطر في مشيتها، قد خالط صرير نعلها أصوات خلخالها كأنها تخطر على أكباد محبيها، فهي كما قال الأفوه الأودي: ليس منها ما يقال لها... كملت لو أن ذا كملا كل جزءٍ من محاسنها... كائنٌ من حسنها مثلا لو تمنت في براعتها... لم نجد في حسنها بدلا فهبتها، والله، يا أمير المؤمنين؛ ثم دنوت منها لأسلم عليها، فإذا الدار والدهليز والشارع قد عبقت بالمسك. فسلمت عليها، فردت السلام بلسان منكسر، وقلب حزين محرقٍ، فقلت لها: يا سيدتي إني شيخ غريب أصابني عطش، فأمري لي بشربةٍ من ماءٍ، تؤجري. قالت: إليك عني، يا شيخ، فإني مشغولة عن سقي الماء وادخار الأجر فقلت لها: يا سيدتي، لأية علة؟ قالت: لأني عاشقة من لا ينصفني، وأريد من لا يريدني، ومع ذلك فإني ممتحنة برقباء فوق رقباء. قلت لها: يا سيدتي، هل على بسيط الأرض من تريدينه ولا يريدك؟ قالت: إنه لعمري على ذلك الفضل الذي ركب الله فيه من الجمال والدلال. قلت لها: يا سيدتي، فما وقوفك في الدهليز؟ قالت: هو طريقه، وهذا أوان اجتيازه. قلت لها: يا سيدتي، هل اجتمعتما في خلوة في وقت من الأوقات، أم حب مستحدث فتنفست الصعداء، وأرخت دموعها على خديها كطل على ورد، وأنشأت تقول:

وكنا كغصني بانةٍ وسط وردةٍ : نشم جنة اللذات في عيشةٍ رغد
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطعٌ :: فيا من رأى فرداً يحن إلى فرد

قلت لها: يا هذه، ما بلغ من عشقك هذا الفتى؟ قالت: أرى الشمس

على حائطهم أحسن منها على حائط غيرهم؛ وربما أراه بغتة، فأبهت وتهرب الروح عن جسدي، وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل؛ قلت لها: عزيز علي، وأنت على مابك من الضنى وشغل القلب بالهوى، وانحلال الجسم وضعف القوى، ما أرى من صفاء اللون، ورقة البشرة فكيف لو لم يكن بك من الهوى شئ، أراك كنت مفتنة في أرض البصرة. قالت: كنت، والله، يا شيخ، قبل محبتي لهذا الغلام، تحفه الدلال والجمال والكمال، ولقد فتنت جميع ملوك البصرة، وفتنني هذا الغلام. فقلت: يا هذه، ما الذي فرق بينكما قالت: نوائب الدهر، وأوابد الحدثان، ولحديثي وحديثه شأنٌ من الشان، وأنبيك أمري: إني كنت أفصدت، في بعض أيام النيروز، فأمرت، فزين لي وله مجلس بأنواع الفرش، وأواني الذهب؛ ونضدنا الرياحين والشقائق والمنثور وأنواع البهار، وكنت دعوت لحبيبي عدة من متظرفات البصرة، فيهن من الجواري، جارية شهران، وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة ألف درهم؛ وكانت الجارية ولعت بي، وكانت أول من أجابت الدعوة، وجاءتني منهن؛ فلما حصلت عندي، رمت بنفسها علي، تقطعني عضاً وقرصاً. ثم خلونا نتمزز القهوة إلى أن يدرك طعامنا، ويجتمع من دعونا، فتارة هي فوقي، وتارةً أنا فوقها، فحملها السكر على أن ضربت يدها على تكتي فحلتها، ونزعت هي سراويلها، وصارت بين فخذي كمصير الرجال من النساء. فبينا نحن كذلك، إذ دخل علي حبيبي، وقد التزق قرطي بخلخالي؛ فلما نظر إلينا، اشمأز لذلك، وصدف عني وعنها صدوف المهرة العربية إذا سمعت صلاصل اللجم، وعض على أنامله، وولى خارجاً. فأنا، يا شيخ، منذ ثلاث سنين، اسل سخيمته، وأستعطفه فلا ينظر إلي بعين، ولا يكتب إلى بحرف، ولا يكلم لي رسولاً. قلت لها: يا هذه، أفمن العرب هو أم من العجم؟ قالت: هو من جلة ملوك البصرة. قلت: من أولاد نيابها أو من أولاد تجارها. قالت: من عظيم ملوكها. قلت لها: أشيخ هو أم شاب؟ فنظرت إلي شزراً وقالت: إنك لأحمق. أقول: هو مثل القمر ليلة البدر، أمرد أجرد، وطرة رقعاء كحنك الغراب، تعلوه شقرة في بياض، عطر لباس، ضارب بالسيف، طاعن بالرمح، لاعب بالنرد والشطرنج، ضارب بالعود والطنبور، يغني وينقر

على أعدل وزن، لا يعيبه شيء إلا انحرافه عني، لا نقصاً لي منه بل حقداً لما رآني عليه. قلت: يا هذه، وكيف صبرك عنه؟ فأنشأت تقول:

::
أمـا النهـار، فمسـتهامٌ والـهٌ : وجفـون عينـي سـاجفاتٌ تـدمع
والليل، قد أرعى النجوم مفكراً :: حتى الصباح ومقلتي لا تهجع
كيف اصطباري عن غزالٍ شادن : في لحظ عينيه سهامٌ تصدع
وجهٌ يضيء وجاجبان تقوسا :: وكأن جبهته سراجٌ يلمع
وبياض وجهٍ قد أشيب بجمرةٍ : في وجنتيه كأنه مستجمع
والقد منه كالقضيب إذا زها :: والغصن في قنوائه يترعرع
تمت خلائقه، وأكمل حسنه : كمثال بدرٍ، بعد عشرٍ، أربع

قلت لها: يا سيدتي، ما اسمه، وأين يكون؟ قالت: تصنع به ماذا؟ قلت: أجهد في لقائه، وأتعرف الفضل بينكما في الحال، قالت: على شريطة قلت: وما هي؟ قالت: تلقانا إذا لقيته، وتحمل لنا إليه رقعة. قلت: لا أكره ذاك. قالت: هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة، يكنى بأبي شجاع، وقصره في المربد الأعلى، وهو أشهر من أن يخفى. ثم صاحت في الدار: يا جواري، دواةً وقرطاساً وشمرت عن ساعدين كأنهما طومارا فضة، ثم حملت القلم وكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم، سيدي: تركي الدعاء في صدر رقعتي، ينبئ عن تقصيري، ودعائي، إن دعوت، يكون هجنة. فلولا أن بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير، لما كان لما تكلفته خادمتك من كتب هذه الرقعة معنى، مع إياسها منك، وعلمها بتركك الجواب. سيدي، فجد بنظرة، وقت اجتيازك في الشارع إلى الدهليز، تحيي بها أنفساً ميتةً أسرى؛ واخطط بخط يدك، بسطها الله بكل فضيلة، رقعة فأجعلها عوضاً من تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنا ذاكرتها. سيدي، ألست لك محبة، وبك مدنفة؟ فإن رجعت، مولاي، إلى الأشبه بك، وأنقذتني من عوارض التلف، كنت لك خادمة، ولك شاكرة. فلما فرغت من الكتاب، يا أمير المؤمنين، ناولتني إياه، فقلت لها: يا سيدتي، قد وجب حقك علي، ولزمتك حرمتي لطول وقوفي عليك. وكنت قد سألت شربة ماء. قالت: استغفر الله، ما فهمنا عنك. ثم صاحت في الدار: أخرجن إلينا شراباً من ماء وغير ماء. فما كان إلا أن أقبل ثلاثون وصيفة، بأيديهن

الطاسات والجامات والأقداح، مملوءة ماء وثلجاً وفقاعاً وشراباً، فشربت الماء ثم قلت: يا سيدتي، مع قدرتك على هذا من استواء الحال، وكثرة الخدم والعبيد والجواري، فلم لا تأمرين إحدى الجواري أن تقف مراعية للغلام، حتى إذا مر أعلمتك، فتخرجين إليه؟ قالت: لا تغلط يا شيخ، فتمثلت؟

عبالة عنق الليث من أجل أنه ⁝ إذا رام أمراً قام فيه بنفسه

ثم انصرفت عنها، يا أمير المؤمنين؛ فلما أصبحت غدوت على محمد بن سليمان فوجدت مجلسه محتفلاً بالملوك، ورأيت غلاماً قد زان المجلس، وفاق من فيه حسناً وجمالاً، قد رفعه الأمير فوقه، فسألت عنه، فقيل: ضمرة بن المغيرة، فقلت في نفسي: بالحقيقة حل بالمسكينة ما حل، هو، والله، قاتلها فيما أرى. ثم قمت فقصدت المربد، ووقفت على باب داره، فإذا هو قد ورد في موكب جليل، فوثبت إليه، وبالغت في الدعاء والثناء؛ ثم دنوت منه، وفاوضته في الذي بيني وبينها، وناولته الرقعة، فلما قرأها ضحك، ثم قال: يا شيخ قد استبدلنا بها، فهل لك في أن تنظر إلى البديل؟ قلت: نعم. فصاح في الدار: يا جواري، أخرجن إلينا لذيذاً. فما كان إلا أن طلعت جارية وضيئة الكمين، ناهدة الثديين، تمشي مشية مستوحل، ترتج من دقة خصرها على كبر عجزه ذات فخذين وعجيزتين تختطفان الأنفس اختطافاً، على رأسها بطيخة من الكافور، مكتوب على جبينها:

آه من الحب آه ⁝ ما أقتل الحب وأضناه

ودون ذلك مكتوب:

عيارةٌ قياسةٌ في الخط ⁝ رخيمة الدل، صيودٌ للرجال

وقد كتبت بالغالية على عصابتها ثلاثة أسطر، وهي:

إذا غضبت رأيت الناس قتلى ⁝ وإن رضيت فأرواحٌ تعود
لها في عينها لحظات سحرٍ ⁝ تميت بها، وتحيي من تريد
وتسبي العالمين بمقلتيها ⁝ فكل العالمين لها عبيد

:

فناولها الرقعة، وقال: اقرئي وأجيبي صاحبتك. فلما قرأت الرقعة، اصفرت، وعرقت، ومزقتها، وضربت بها في وجه الغلام، وغابت في الستر. فقال لي: أما أنت، يا شيخ، فاستغفر الله مما مشيت فيه. قلت: بل أنت استغفر الله من هجرانك إياها، وتركك إتيانها. والله ما أرى لها في البشر نظيراً. قال: لا أفعل، ولو أنها في حسن يوسف وكمال حواء. فخرجت، يا أمير المؤمنين، وأنا أجر ذيلي حتى وردت عليها؛ فاستأذنت ودخلت، فبدأت بي، فقالت: ما وراء الشيخ؟ قلت: البؤس واليأس. قالت: لا عليك. فأين الله والقدر؟ ثم أمرت لي بخمسمائة دينار، وعشرة أثواب، وخرجت من عندها وأنا ممتدح لآل سليمان. فلم يكن لي، والله، إلا معرفة خبرها في العام الذي عدت فيه إلى البصرة، فوردت عليها، فوجدت على بابها أمراً، ونهياً، وأسباباً لا تكون إلا على باب الخلفاء. فاستأذنت، فدخلت، فإذا فوق رأسها ثلاثون رجلاً من شيوخ وشبان وخدم، وقوف بسيوفهم، فلما نظرت إلي، عرفتني، ووثبت إلي، وقبلت رأسي، وقالت: يا شيخ الحمد لله الذي جعل العبيد بالصبر ملوكاً، وجعل الملوك بالتيه عبيداً، إن الذين تراهم وقوفاً، أصحاب ضمرة، يسلون سخيمتي، ويسألونني الرجوع له، والله، لا نظرت إليه في وجه، ولو أنه في حسن يوسف وكمال حواء. فسجدت، يا أمير المؤمنين، شماتة بضمرة، وتقرباً إلى الجارية. فقال بعض حجاب ضمرة: مهلاً يا شيخ، فمن طاب محضره، طاب مولده. ثم انصرفوا. فناولتني خريطة فيها أوراق، فقالت: هذا أول ما ورد علينا منه، فإذا ثوب خز أبيض يفق، مكتوب فيه بماء الذهب: بسم الله الرحمن الرحيم. لولا تغاضي عليك، أدام الله حياتك، لو صفت شطراً من غدرك، ولبسطت سوط عتبي عليك، وحكمت سيف ظلامتي فيك، إذ كنت الجانية على نفسك، والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء، المؤثرة علينا غيرنا، فخالفت هواي، وفرشت نفسك لها، على حالتي جد وهزل، وصحو وسكر، والمستعان الله على ما كان من سوء اختيارك. وقد ضمنت رقعتي هذه، أبيات شعر، أنت المتفضلة بالنظر إليها، وهي:

قطع قلبي فراقكم قطعا :: وكدت أقضي بينكم جزعا
ما تكحل العين بالرقاد ولا : ينام جنبي في الليل مضطجعا

لا عيش لي مذ نأت ولا وجدت :: عيناي في الأرض قط متسعا
:
::
:

قلت لها: أفلا تحدثينني كيف سليت عنه، وابتلى؟ قالت: كيف لا أحدثك؟ افتصدت تفاحة، جارية محمد بن سليمان، فدعينا إلى خورنق لمحمد بن سليمان، فلما طعمنا، دعت لنا بالشراب، فبينا نحن كذلك، إذا بحراقة سلطانية قد وردت، وفيها عدة من أبناء الملوك، وفيهم هذا العيار، ولا علم لي بمكانه، وكنت حملت العود وغنيت:

::
أبلى فؤادي وشفني الأرق : والدمع من مقلتي يستبق
من حب ظبيٍ أغن ذي دعجٍ :: وقلبه للشفاء منطبق
:

فلما وجبت العتمة انصرفنا، وأبطأت الجارية، وأتاني هؤلاء القوم من عنده يسلون سخيمتي، ويستعطفونني عليه. ثم انصرفت عنها، يا أمير المؤمنين، ودخلت الحمام من ساعتي، فما كان إلا دخلت، حتى أتاني غلامي، فقال: جماعة من جلة الناس قد طرقوا دارك يطلبونك. فلبست ثيابي، وخرجت مسرعاً، فإذا بضمرة قد كبس داري في عدة من الرؤساء، فقال: والله، لا برحنا، حتى تنفق علينا الخمسمائة دينار التي أخذتها من الجارية، سيدتي. قلت: أي والله، بالسمع والطاعة. ثم جذبني إلى نفسه، فلم يزل يناظرني في أمرها حتى أقبل المساء، ثم انصرف إلى رحله. فلما كان من الغد، وردت له رقعة مع خادم، وكيس فيه الف دينار، واستزارني، فقبلت ذلك، وصرت معه إليه. فلما نظر إلي، تنحى عن مقعده، وأقعدني، ثم قال: هذا قد أعددته، للنيروز، لسيدتي هدية، وأنت أولى من تجشم مع الخادم إليها. قلت: السمع والطاعة. ثم صاح في الدار: هاتوا الهدية. فإذا مائة تخت من ثياب، وصندوق من ذهب مقفل عليه، فقال لي: في التخت والصندوق مبلغ ثلاثين ألف دينار، وأنت أولى من تفضل بالإيصال. فصرنا إليها، واستأذنا، فلما مثلنا بين يديها، أنكرتني وقالت: من الشيخ؟ قلت: الخليع، شاعر العراق؛ ومعي هدية عبدك ضمرة. فصاحت في الدار: تملك فإذا جارية كأنها الظبية المنفلتة من الشبكة، قالت لها: خذي هذه

الهدايا، وفرقيها على جواري الدار، ثم قالت: أيطمع الخنوص أن يجتمع معي، بعد قبولي الهدية، في ثلاثين سنة؟ قلت لها: العفو عند المقدرة يعدل عتق رقبة، قالت: ففي خمس عشرة سنة؟ قلت لها: أنقصيها، أولى بك. قالت: ففي ثلاث سنين، قلت لها: حطة أخرى، وقد اجتمعنا، قالت: لا، والله، لا آكل ولا أشرب حتى آتيه. وأمرت أن يسرج؛ وبادرت إلى باب ضمرة مبشراً،فما وصلت أو سمعت صلاصل اللجم، فإذا هي قد سبقتني في جواريها وخدمها. فدخلت، فإذا هما يتعانقان ويتعاقبان، فقلت: يا سيدتي، ما أنتما إلى شيء أحوج منكما إلى خلوة. قالا: هو ذاك فانصرفت عنهما، ثم بكرت عليهما، فإذا هي في المرقد الأول جالسة، عليها جبة وشيء مطير، وهي تعصر الماء عن ذوائبها، وتصلح قرونها، فاستحيتني وقالت: لا تفكرن في ريبة، فوالله ما صلينا البارحة، حتى بعثت إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي، فزوجت نفسي سيدي. ولكن صر إليه في المرقد الثاني. فصعدت إليه، فلما نظر إلي، وثب إلي، وقبل بين عيني وقال: يا شيخ، قد جمع الله بيني وبين سيدتي بك. ثم دعا بدواة وقرطاس، وكتب إلى ابن نوح الصيرفي في ثلاثة آلاف دينار؛ فرجعت إليها، فقالت: بماذا برك سيدي؟ فأقرأتها الرقعة، فقالت: نعجل إليك مثلها، فدعت بمال وطيار ووزنت ثلاثة آلاف دينار، ودعت بعشرة أثواب من ثياب مصر، وقالت: هذه وظيفتك علينا كل عام، فخرجت من عندي، وأخذت مرفوعي من آل سليمان، وانصرفت إلى العراق. وكان الرشيد متكئاً، فاستوى جالساً وقال: أوه يا حسين لولا أن ضمرة سبقني إليها، لكان لي ولها شأن من الشأن [1].

أفأفهمه وأنا وحدي!؟:

قيل: دخل رجل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إني هجوت الروافض.

قال: هات، فقال:

شمساً ورغماً وزيتوناً ومظلمة :: من آن ينالوا من الشيخين

(1) المحاسن والأضداد، 208 - 211.

: طغيانـــــــــــــــــــــا

فقال: فسّر. قال: يا أمير المؤمنين أنت في مائة ألف لا تفهم هذا أفأفهمه وأنا وحدي! فضحك وأمر له بصلة [1].

هذا عقوبة من عصى:

قال: وكتب يحيى بن خالد البرمكي إلى الرشيد: من الحبس لأمير المؤمنين وخلف المهديين وخليفة رب العالمين، من عبد أسلمته عيوبه وأوبقته ذنوبه وخذله شقيقه ورفضه صديقه وزال به الزمان ونزل به الحدثان وحلّ به الضيق بعد السعة والشقاء بعد السعادة وعالج البؤس بعد الدعة ولبس البلاء بعد الرخاء وافترش السخط بعد الرضى واكتحل السهود وفقد الهجود، ساعته شهر وليلته دهر، قد عاين الموت وشارف الفوت، جزعاً يا أمير المؤمنين قدمني الله قبلك من موجدتك وأسفاً على ما حرمته من قربك لا على شيء من المواهب، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وعارية في يديّ منك، والعارية لا بد مردودة، فأما ما اقتصصته من ولدي فبذنبه وعاقبته بجرمه وجريرته على نفسه فإنما كان عبداً من عبيدك لا أخاف عليك الخطأ في أمره ولا أن تكون تجاوزت به فوق ما كان أهله ولا كان مع ذلك بقاؤه أحبّ إلي من موافقتك، فتذكّر يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك وحجب عني فقدك، كبر سني وضعف قوتي وارحم شيبتي وهب لي رضاك عني ولتمل إليّ بغفران ذنبي، فمن مثلي يا أمير المؤمنين الزلل ومن مثلك الإقالة، ولست أعتذر إليك إلا بما تحب الإقرار به حتى ترضى، فإذا رضيت رجوت أن يظهر لك من أمري وبراءة ساحتي ما لا يتعاظمك معه ما مننت به من رأفتك بي وعفوك عني ورحمتك لي، زاد الله في عمرك يا أمير المؤمنين وقدمني للموت قبلك. وكتب في أسفله:

قـــل للخليفـــة ذي الصـــنا :: ئـــع والعطايـــا الفاشـــيه
وابـــن الخلائـــف مـــن قـــري : شٍ والملـــوك الهاديـــه
ملـــك الملـــوك وخيـــر مـــن :: ســـاس الأمـــور الماضـــيه
إن البرامكـــــة الذيـــــ : ن رمـــوا لـــديك بداهيـــه
عمّـــتهم لـــك ســـخطةٌ :: لـــم تبـــق مـــنهم باقيـــه
فكـــأنهم ممـــا بهـــم : أعجـــاز نخـــلٍ خاويـــه

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،187/1.

صـــفر الوجـــوه علـــيهم :: خلـــع المذلـــة باديـــه
متفـــرقين مشتتيـــن : ن بكـــل أرضٍ قاصـــيه
بعـــد الإمـــارة والـــوزا :: رة والأمـــور الســـاميه
ومنـــازلٍ كـــانوا بهـــا : فـــوق المنـــازل عاليـــه
وتحـــرَّمٍ برضـــاعٍ أو :: فـــي مُرضـــعٍ لـــك فاديـــه
فـــاليوم قـــد رمـــوا لديـــ : ك بمـــا يشـــيب الناصـــيه
أضـــحوا وجـــلٌ منـــاهم :: منـــك الرضـــى والعافيـــه
فـــإذا رضـــيت فـــإن أن : فســـهم بحكمـــك راضـــيه
فـــاليوم قـــد ســـلب الزمـــا :: ن كرامتـــي وبهائيـــه
واليـــوم قـــد ألقـــى الزمـــا : نِ جرانـــه بفنائيـــه
ورمـــى ســـواد مقلتـــي :: فأصـــاب حـــين رمانيـــه
يـــا مـــن يـــود لـــي الـــردى : يكفيـــك ويحـــك مـــا بيـــه
يكفيـــك مـــا أبصـــرت مـــن :: ذلّـــي وذلّ مكانيـــه
يكفيـــك أنـــي مســـتبا : حٌ معشـــري ونســـائيه
ورزئـــت مـــالي كلـــه :: وفـــدى الخليفـــه ماليـــه
إن كـــان لا يرضـــيك إ : لا أن أذوق حماميـــه
فلقـــد رأيـــت المـــوت مـــن :: قبـــل الممـــات علانيـــه
وفجعـــت أعظـــم فجعـــةٍ : وفنيـــت قبـــل فنائيـــه
ولبســـت أثـــواب الذليـــ :: ل ولـــم تكـــن بلباســـيه
وعطبـــت فـــي ســـخط الإمـــا : م علـــى رفيـــع بنائيـــه
فـــانظر بعينـــك هـــل تـــرى :: إلا قصـــوراً خاليـــه
وذخـــائراً مقســـومةً : قسّـــمن قبـــل مماتيـــه
وحرائـــراً مـــن بـــين صـــا :: رخـــةٍ علـــيّ وباكيـــه
ونوادبـــاً ينـــدبنني : تحـــت الـــدجى بكنائيـــه
يابـــا علـــيّ البرمكـــ :: يّ فمـــا أُجيـــب الداعيـــه
وبكـــاؤهن وقـــد سمعـــ : ت مقلقـــلٌ أحشـــائيه
أخليفـــة الله الرضـــى :: لا تشـــتمن أعدائيـــه
:

اذكر عهودك لي وما أعطيتني بوفائيه

اذكـــر مقاســـاتي الأمـــو :: ر وخـــدمتي وعنائيـــه
ارحـــم جعلـــت لـــك الفـــدا : كبـــري وشـــدة حاليـــه
ارحـــم أخـــاك الفضـــل والـــ :: بـــاقين مـــن أولاديـــه
فلقـــد دعـــوك وقـــد دعـــو : تـــك إن ســـمعت دعائيـــه
أخليفـــة الرحمـــان إ :: نـــك لـــو رأيـــت بناتيـــه
وبكـــاء فاطمـــة الكئـــي : بـــة والمـــدامع جاريـــه
ومقالهـــا بترجّـــع :: وا شـــقوتا وشـــقائيه

مـــن لـــي ولا مـــن لـــي وقـــد : فصـــــم الزمـــــان قناتيـــــه
وعـــدمت صـــفو معيشـــتي :: وتغيـــــرت حالاتيـــــــه
مـــن لـــي وقـــد غضـــب الزمـــا : ن علـــى جميـــع رجاليـــه
أودى الزمـــــان بجـــــوره :: بساســـــتي وحماتيـــــه
يـــا عطفـــة الملـــك الرّضـــى : عـــــودي علينـــــا ثانيـــه

فوقّـع الرشـيد فـي رقعتـه:{ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ ڄ}
[النحل: ١١٢]، وقد قلت:

::
:
يـــــا آل برمـــــك إنمـــــا :: كنـــــتم ملوكـــــاً عاديـــــه
فطغيـــــــتم وبغيـــــــتم : وكفـــــــرتم نعمائيـــــــه
هـــذا عقوبـــة مـــن عصـــى :: مـــــن فوقـــــه وعصـــــانيه
كنـــتم كشـــيء قـــد مضـــى : أحـــــلام نـــــومٍ ســـــاريه
::
:

وتمثل بقول مهلهل:

::
:
بـــات ليلـــي بـــالأنعمين طـــويلا :: أرقـب الـنجم سـاهراً أن يـزولا
أزجـر العـين أن تُبكّـي الطلـولا : إن فـي الصـدر مـن كليـب غليـلا
إن فـي الصـدر غلـةً لـن تقضّـى :: مـا دعـا فـي الغضـون داع هديلا
لـم يطيقـوا أن ينزلـوا فنزلنـا : وأخـو الحـرب مـن أطـاق النـــــــــــــــــزولا[1]
::
:

أحسبه صادقاً:

وحكي عن الرشيد في عبد الله بن مالك الخزاعي حين غضب عليه فأمر أهله وحشمه وجميع قراباته أن يتجنبوا كلامه ومعاملته ومعاطاته حتى أثر ذلك في بدنه وتحاماه أقرب الناس إليه من ولد وأهل فلم يدن منه أحد ولم يطف به.

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،229/1.

فجاءه محمد بن إبراهيم الهاشمي وكان أحد أودّائه، في جوف الليل، فقال له: إن لك عندي يداً ما أنساها ومعروفاً ما أكفره وقد علمت ما تقدم به أمير المؤمنين في أمرك وها أنا بين يديك ونصب عينيك فمرني بأمرك فوالله لأجعلن نفسي وقاية لك. فقال له عبد الله خيراً وأثنى عليه وأخبره بعذره فيما وجد عليه الرشيد.

فلما دخل عليه قال له: أين كنت في هذه الليلة؟ قال: عبدك يا أمير المؤمنين عبد الله بن مالك كنت عنده وهو يحلف بطلاق نسائه وعتق مماليكه وصدقة ماله مع عشرين بدنة يهديها إلى بيت الله الحرام حافياً راجلاً إن كان ما بلغ أمير المؤمنين سمعه الله جل وعز من عبد الله ولا اطّلع عليه ولا همّ به أو أظهره. قال: فأطرق الرشيد مليًّا مفكراً ومحمد يلحظه ووجهه يشرق مرة ويسفر أخرى وكان قد حال لونه حين دخل عليه، ثم رفع رأسه فقال: أحسبه صادقاً يا محمد فمره بالرواح إلى الباب. قال: وأكون معه؟ قال: نعم. فانصرف محمد إلى عبد الله فبشّره وأمره بالركوب رواحاً. فدخلا جميعاً، فلما أبصر عبد الله بالرشيد انحرف نحو القبلة وخرّ ساجداً ثم رفع رأسه، فاستدناه الرشيد فدنا وعيناه تهملان فأكب عليه وقبّل بساطه ورجليه وموطئ قدميه ثم طلب أن يأذن له في الاعتذار. فقال: ما بك حاجة إلى أن تعتذر إذ قد عرفت عذرك.

قال: فكان عبد الله يرى بعد ذلك إذا دخل على الرشيد بعض الانقباض، فشكا ذلك إلى محمد، فقال محمد: يا أمير المؤمنين، إن عبدك عبد الله يشكو أثراً باقياً من تلك النبوة التي كانت من أمير المؤمنين ويسأل الزيادة في بسطه. فقال الرشيد: إنا معشر الملوك إذا غضبنا على أحد من بطانتنا ثم رضينا عنه بقي لتلك الغضبة أثر لا يخرجه ليل ولا نهار.

قيل: ومدح شاعر أبا حاتم كاتب الديوان فلم يصله بشيء فأنشأ يقول:

لتُنصفنّي يا أبا حاتم ... أو لأصيرنّ إلى حاكم
أول ما أتلفت من ماله ... خمسين ألفاً في شرى هاشم
خمسين ألفاً وضحاً كلها ... من مال هذا الملك النائم

فاحتفظها صاحب الخبر ورفعها إلى الرشيد فقال: صدق، لولا أني نائم ما كانت أموري تجري على هذا السبيل: وأمر بإخراج الجرائد من الدار إليه. فأول ما وجد على منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم.

عذره له أحسن من إحيائه إياه:

فحدّث صالح صاحب المصلّى قال: دعاني الرشيد وهو على كرسي فقال: اذهب الساعة فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم فإن لم يوردها بينك وبين المغرب فاضرب عنقه وجئني برأسه وأنا نفيّ من المهدي لئن أنت دافعت عنه لأضربنّ عنقك. قلت: يا سيدي فإن أعطاني بعضها ووقّت لي في بعضها وقتاً؟ قال: لا. فخرجت فأعلمته الخبر فأسقط في يده وقال: ما أراد إلا قتلي لأنه يعلم أن مقدار مالي لا يبلغ ما به طالبني، ولكن تأذن لي أن أدخل بيتي فأودّع أهلي؟ فأذنت له فدخل ودخلت معه وبقيت واقفاً فبعث إلى أمهات أولاده وبناته ونسائه أن اخرجن إلي كما كنتن تخرجن عند موتي فإن هذا آخر أيامي ولا ستر لكن بعدي. فخرجن إليه مشققات الجيوب مخمّشات الوجوه بصراخ شديد. فبكى إليهن وبكين إليه وبكيت معهن ثم ودعهن وخرج وهنّ في أثره واضعات التراب على رؤوسهن، ثم قال: يا أبا مقاتل لو أذنت لي في المصير إلى أبي عليّ يحيى بن خالد البرمكي فكنت أوصيه بولدي وأهلي؟ فقلت: امض.

وصرنا إليه وقد نزل في ساعته وهو على كرسي يغسل يده، فلما توسطنا الدار جعل منصور يبكي ويمشي إليه حتى دنا منه وهو يسأله عن الحال فيمنعه البكاء من إخباره، فأقصصت عليه قصته فقال: ارجع إلى أمير المؤمنين وسله أن يهبه لي. قلت: ما لي إلى ذلك سبيل ولا يراني إلا والمال معي أو رأس منصور كما أمرني. فقال لخادم له: ائت فلانة فسلها كم لنا عندها من المال. فانصرف وذكر أن عندها خمسة آلاف ألف درهم. فقال لي: احملها وابلغ أمير المؤمنين رسالتي في باقيها. فأعلمته أن لا سبيل إلى حمل بعضها دون بعض. فأطرق ثم رفع رأسه ثم قال: يا غلام ائت دنانير فقل لها تبعث إلي بالجوهر الذي وهبه لها أمير المؤمنين. فبعثت إليه بحقّ فقال: هذا جوهر ابتعناه لأمير المؤمنين بمائتي ألف دينار

وهو عارف به وقد جعلته له بمائة ألف دينار وهو ألفا ألف درهم، واحمل إليه هذه السبعة الآلاف الألف والرسالة. فأبيت.

فوجّه إلى الفضل ابنه: إنك كنت أعلمتني أنك على ابتياع ضيعة نفيسة وقد أصبتها ولا يوجد مثلها في كل وقت وابتياعها فرصة فاحمل إلي مالها. فعاد الرسول ومعه ألفا ألف درهم. ووجه إلى جعفر ابنه أن يوجّه إليه بألف ألف درهم. فأنفذ إليه صكاً أو صكاكاً إلى الجهبذ بها. فقبضت المال ووافيت الرشيد قبل المغرب وهو منتصب على حالته ينتظر رجوعي إليه. فأخبرته الخبر فلما انتهيت إلى خبر الحقّة قال: صدق وقد ظننت أنه لا ينجيه غيرهم، احمل هذا المال أجمع إلى أبي عليّ وارددده عليه وأعلمه أني قد قبلت ذلك عن منصور ورددته عليه. ففعلت ذلك.

ولقيني بعد ذلك يحيى منصرفاً من الدار ومنصور معه يسايره ويضاحكه والناس خلفه فقلت: والله لأنصحن هذا الشيخ الكريم. فدخلت معه ودخل منصور ودعا بغدائه، فلما نهض منصور قلت: يا أبا علي إني والله ما رجعت معك إلا لنصحك وقد رأيت مكان هذا الرجل منك وكنا حين حملت المال أنهضته معي فوالله ما قطع نصف الصحن من الدار حتى تمثل بهذا البيت:

فمـــا بُقيـــا علـــي تركتمـــاني ⁝ ولكـــن خفتمـــا صـــرد النبـــال

فعارض أكرم فعلك بألأم خصلة فيه فدعاني الامتعاض من ذلك إلى إخبارك، فإني من تعلم في مودتك وطاعتك. فأكب على الأرض ساعة ثم رفع رأسه فقال: اعذره فقد كان عقله عزب عنه في ذلك الوقت. قال: فكان عذره له أحسن من إحيائه إياه[1].

أتدرون ما قالت هذه المرأة؟!:

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، 229/1.

فقالت: يا أمير المؤمنين، أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت. فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم. فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟! فقالوا: ما نراها قالت إلا خيرا. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى:{□ □ □ □ □ □ □ □} [الأنعام: ٤٤]، وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

(إذا تم أمر بدا نقصه ∴ ترقب زوالا إذا قيل تم)

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى:{ٻ ٻ ٻ ٻ ڀ ڀ ڀ ڀ} [الجن: ١٥]، فتعجبوا من ذلك [1].

فلما جاءك المال والجائزة جلست:

وحج هارون الرشيد، فأرسل إلى سفيان بن عيينة فأمره أن يحدث بنيه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد سألني الناس فامتنعت عليهم، ولكني أجلس لبنيك وللناس، فقال: نعم. فلما جلس صاح به الناس: سألناك الجلوس لنا فأبيت علينا، فلما جاءك المال والجائزة جلست.فقال للمستملي: أنصتهم لي.فصاح المستملي: صه صه. فسكت الناس، فأخرج سفيان بن عيينة رأسه إليهم،وقال: حدثني الزهري، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما شيءٌ أحل وأطيب من ثلاثة:صداق الزوجة، والميراث، وما أتاك الله به من غير مسألة، فإنه رزق ساقه الله إليك** -. والله ما جئت هذا الرجل ولا سألته شيئاً من ماله، ولو وجّه إليّ شطر ماله لقبلته، ثم أدخل رأسه ولم يحدثهم في ذلك الموسم بشيء. [2]

بعثت فيك لرؤيا رأيتها:

(1) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، 101/1، 102.
(2) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 32/1.

رأى الرشيد رؤيا فهمته، فوجه في الكرماني بريداً، فلما أتاه ومثل بين يديه خلا به وقال: بعثت فيك لرؤيا رأيتها. فقال: وما هي؟ قال: رأيت كلبين ينهشان قبل جارية من جواري. فقال له الكرماني: ما رأيت إلا خيراً يا أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: قل ما تراه وهات ما عندك، فقال له: هذه جارية دعوتها لتجامعها، وكان لا عهد لك معها بذلك، وكانت ذات شعر، فكرهت أن تحلق فتجد أثر الموسي، وكرهت أن تبقى على هيئتها، فأخذت جلماً فحلقت بعض الشعر وتركت بعضه، فأشار الرشيد إليه بالقعود، وقام فدخل إلى نسائه، ودعا بتلك الجارية فسارها مستفهماً منها عن ذلك، فأقرت به وصدقت الكرماني، فخرج إليه الرشيد، فقال له: أصبت وسررتني، وأمر له بصلة سنية، ثم قال له: إياك أن تحدث بها ما كنت حياً. قال: فوالله ما حدثت بها ما دام الرشيد حيا[1].

ابن السماك والرشيد:

وذكر محمد بن هارون عن أبيه قال: حضرت الرشيد، وقال له الفضل بن الربيع: يا أمير المؤمنين، قد أحضرت ابن السماك كما أمرتني قال: أدخله. فدخل فقال له: عظني. قال: يا أمير المؤمنين، اتق الله وحده لا شريك له، واعلم أنك واقف غدا بين يدى الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما: جنة أو نار. فبكى هارون حتى اخضلت لحيته، فأقبل الفضل على ابن السماك فقال: سبحان الله وهل يتخالج أحدا شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله، فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله: ولم يلتفت إليه وأقبل على أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا يعنى الفضل بن الربيع ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم فاتق الله، وانظر لنفسك، فبكى هارون حتى أشفقنا عليه وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف حتى خرجنا.

قال: ودخل ابن السماك على الرشيد يوما فبينا هو عنده إذ استسقى ماء فأتى بقلة من ماء فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها قال له ابن السماك: على

(1) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 203/1.

رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها قال بنصف ملكي قال: اشرب هنأك الله فلما شربها قال له: أسألك بقرابتك من رسول الله لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها؟ قال: بجميع ملكي قال ابن السماك: إن ملكًا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه فبكى هارون فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف فانصرف [1].

وفي بدنك أربعة أسياف لا بد أن يقتلك أحدها؟!:

وعن أبي يعقوب قال: كنت قائماً بين يدي الرشيد وقد قدم إليه جماعة من الملحدين، فدعا بالسيَّاف لقتلهم، فلما رآه شيخٌ منهم اضطرب وجزع، فقال له شاب منهم: يا شيخ، ترتاع من سيف هذا وفي بدنك أربعة أسياف لا بد أن يقتلك أحدها؟! وهي: الدم والبلغم والصفراء والسوداء؟! فتماسك الشيخ. فأمر الرشيد بأن يقدم قتل الشاب، وقال: هذا الغلام فتنة من فتنهم [2].

من إجلال الله تعالى إجلال العلم:

وجه الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله ليأتيه فيحدثه فقال مالك: إن العلم يؤتى! فسار الرشيد إلى منزله فاستند معه إلى الجدار، فقال: يا أمير المؤمنين، من إجلال الله تعالى إجلال العلم، فقام وجلس بين يديه وبعث إلى سفيان بن عيينة فأتاه وقعد بين يديه وحدثه، فقال الرشيد بعد ذلك: يا مالك تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به[3].

أقتله فلأن يموت خير من أن يموق:

وضرب أبو مريم مؤدب الأمين والمأمون الأمين بعود فخدش ذراعه. فدعاه الرشيد إلى الطعام فتعمد أن حسر عن ذراعه، فرآه الرشيد، فسأله فقال: ضربني أبو مريم، فبعث إليه ودعاه قال: فخفت، فلما حضرت قال: يا غلام وضئه. فسكنت وجلست آكل فقال: ما بال محمد يشكوك؟ فقلت: قد

(1) جمهرة خطب العرب، 3 /100.
(2) أسامة بن منقذ، لباب الآداب، ص60.
(3) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 10/1.

غلبني خبثاً وعرامة! قال: أقتله فلأن يموت خير من أن يموق[1].

فقير عرض عليه مال فتزهد فيه:

لما رجع الرشيد عن الحج كان قد نذر أن يتصدق بألف دينار على أحق من يجده، فدفع يوماً ألف دينار إلى بعض ثقاته وأمره أن يطلب فقيراً مستحقاً فيعطيه، فأخذ يطوف في الأسواق، فإذا رأى فقيراً مستحقاً للإعطاء قال: لعلي أجد أفقر منه، فانتهى بالعشي إلى عريان محلوق الرأس في خربة فقال في نفسه: لا أجد أفقر من هذا. فقال: يا فتى خذ هذا المال واستغن به. فقال: لا حاجة لي فيه. قال: أحب أن تأخذه. قال: إن كان ولا بد فثم حجام حلق رأسي، ولم يكن معي شيء فأدفعه إليه. قال: فقصدت الحجام فامتنع من أخذه، فقلت: هو ألف دينار! فقال: ما حلقت رأسه إلا للوثاب فلا آخذه عليه أجرة. قال: فعدت وما وجدت أكرم منهما وأهون مني، فأخبرت الرشيد بأمرهما فبعثني في طلبهما، فكأن الأرض ابتلعتهما ولم أظفر بهما، ولما حج الرشيد دخل على الفضيل فوعظه بما وعظه، وأراد الخروج فقال: يا فضيل هل عليك دين؟ فقال: نعم دين ربي لو يحاسبني عليه، فالويل لي إن حاسبني عليه، والويل لي إن ناقشني. فقال الرشيد: إني أسألك عن دين العباد. فقال: عندنا بحمد الله خير كثير لا نحتاج معه إلى ما في أيدي الناس. قال: هذه ألف دينار فاستعن بها. فقال: يا حسن الوجه أدلك على النجاة وتكافئني بالهلاك، أسأل الله التوفيق! فلما خرج عاتبته بنيته فقالت: لو أخذتها فاستعنا بها. فقال: إن مثلي ومثلكم مثل قوم كان لهم بعير يكدونه ويأكلون من كسبه، فلما كبر وسقط عن العمل نحروه فأكلوه. ومر الإسكندر ببلد كان ملكه سبعة ملوك من صلب واحد ففنوا، فقال لأهله: هل بقي من نسل الأملاك السبعة أحد؟ قالوا: نعم رجل يكون في المقابر. فقصده وقال: ما دعاك إلى ملازمة المقابر؟ فقال: أردت أن أعزم عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدت عظامهم سواء. قال:

(1) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 19/1.

لهل لك أن تبتغي فأحيي لك شرف آبائك إن كان لك همة؟ قال: إن همتي عظيمة إن كانت بغيتي عندك. قال: وما بغيتك؟ قال: حياة لا موت فيها، وشباب لا هرم فيه، وغنى لا فقر بعده، وسرور لا يغيره مكروه. فقال: لا أقدر من رأيت. فقال: امض لشأنك ودعني أطلب بغيتي ممن عنده ذلك. قال الإسكندر: هذا أحكم من رأيت. وقف أعرابي على محمد بن معمر وكان محمد جواداً، فسأله فخلع خاتمه ودفعه إليه، فلما ولى قال: يا أعرابي لا تخدعن عن هذا الفص فإن شراءه علي مائة دينار. فمضغ الأعرابي الخاتم وقلع فصه وقال: دونكه فالفضة تكفيني أياماً. فقال: هذا والله أجود مني[1].

من كلامه:

- وعن الأصمعى قال سمعت الرشيد يقول النوادر تشحذ الأذهان وتفتق الآذان [2].

محاسن ما قيل في الشيب:

قال: دخل منصور النميري على الرشيد فأنشده:

ما كنت أوفي شبابي كنه عزته :: حتى مضى فإذا الدنيا له تبع

فبكى الرشيد وقال: يا نميري لا خير في دنيا لا يخطر فيها بحلاوة الشباب ويستمتع بأيامه، وأنشد:

ولو أن الشيب رزءٌ حل بي :: وقت ما استحققت شيباً لم أبل
بل أتاني والصبا يرمقني :: مثل ما يأتي الكبير المكتهل

وأنشد:

حسرت عني القناع ظلوم :: وتولت ودمعها مسجوم
أنكرت ما رأت برأسي فقالت :: أمشيبٌ أم لؤلؤٌ منظوم
قلت شيبٌ وليس عيباً، فأنّت :: أنّةً يستثيرها المهموم

(1) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 244/1.
(2) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين،المكتب التجاري - بيروت، ص19.

واكتست لون مرطها ثم قالت : هكذا من توسدته الهموم
إن أمراً جنى عليك مشيب الـ :: رأس في جمعه لأمر عظيم
شدّ ما أنكرت تصرف دهرٍ : لم يداوم وأي شيءٍ يدوم [1]
::
:
::
:
::
:

- وحدث الأصمعي قال: دخلت ذات يوم على الرشيد فقال لي: اكتب يا أصمعي ولو على تِكّتك أو طرف ثوبك:

::
كن موسراً إن شئت أو معسراً : لا بد في الدنيا من الهم
وكلما زادك في نعمةٍ :: زاد الذي زادك في الغم
:

قال: فكتبت البيتين [2].

قيل: ودخل الأمين على أبيه الرشيد وقد عرضت له وصيفة جميلة فلم يزل محمد ينظر إليها وفطن له أبوه فقال: يا محمد ما ترى في هذه الوصيفة؟ قال: ما أرى بأساً. قال: فهل لك فيها؟ قال: أمير المؤمنين أحق بها مني. قال: فقد آثرك على نفسه فخذها. فأخذها. فقال الرشيد:

::
ولي ولدٌ لم أعصه مذ ولدته : ولا شكّ في بري به مذ ترعرعا
تخيرته للملك قبل فطامه :: وأقطعته الدنيا فطيماً ومُرضعا
فلا الملك يخلو باعه من محمدٍ : ولا هو منه بل هما هكذا معا
::
:

فنهض محمد ومعه الجارية فأتبعه طرفه فلما غاب قال:

وإنما أودلانا بيننا :: أكبادنا تمشي على الأرض[3]
:

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، 157/1.
(2) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،181/1.
(3) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،233/1.

- قال يحيى بن خالد: دخلت على الرشيد يوماً فأصبته متكئاً يسطر في ورقةٍ فيها كتابة بالذهب، فلما رآني تبسم، فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية، وقد أضفت إليهما ثالثاً، وأنشدني:

إذا سد باب عنك من دون حاجةٍ ... فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ... ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
ولا تك مبذالا لعرضك واجتنب ... ركوب المعاصي يجتنبك عقابها[1]

خطبة هارون الرشيد:

الحمد لله نحمده على نعمه ونستعينه على طاعته ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقًّا ونتوكل عليه مفوضين إليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله بعثه على فترة من الرسل ودروس من العلم وإدبار من الدنيا وإقبال من الآخرة بشيرًا بالنعيم المقيم ونذيرًا بين يدى عذاب أليم فبلغ الرسالة ونصح الأمة وجاهد في الله فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين فعلى النبى من الله صلاة ورحمة وسلام.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن في التقوى تكفير السيئات وتضعيف الحسنات، وفوزا بالجنة ونجاة من النار، وأحذركم يوما تشخص فيه الأبصار وتعلن فيه الأسرار يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاق ويوم التناد يوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد من حسنة يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.

عباد الله إنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى، حصنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخبر أن النبي

(1) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 241/1.

قال: **لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له** - إنكم سفر مجتازون وأنتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالأمانة، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين قال الله عز وجل وقوله الحق:{ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ} [الأعراف: ١٥٦]، وقال:{گ گ گ گ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ں} [طه: ٨٢]، وإياكم والأمانى فقد غرت وأردت وأوبقت كثيرا حتى أكذبتهم منياهم، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون فأخبركم ربكم عن المثلاث فيهم وصرف الآيات وضرب الأمثال فرغب بالوعد وقدم إليكم الوعيد وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالى جيلا فجيلا وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باحتطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم فزالت عنهم الدنيا وانقطعت بهم الأسباب فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب:{گ گ گ گ گ گ گ گ ڳ ڳ} [النجم: ٣١]، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله يقول الله عز وجل:{ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ} [الأعراف: ٢٠٤]، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم:{ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ} [الإخلاص: ١ - ٤]، آمركم بما أمركم الله به وأنهاكم عما نهاكم عنه وأستغفر الله لى ولكم.

وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين:

ووصى الرشيد مؤدب ولده الأمين فقال: يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة

والغلظة[1].

* * *

(1) جمهرة خطب العرب، 3 /84 - 85.